Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



د. شاكر مصطفى



الأندلس في التاريخ

اهداءات ٢٠٠٢
الاستاذ/ فاضل السباعى
دار الاشبيلية- سوريا

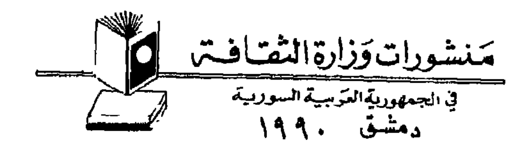
الاشراف الفني : زهـــــيرالحــمو

الأندلس في التاريخ



د. شاكر مصطفى


الأندلس في التاريخ


منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٠



التاريخ السابق والفتح

الأندلس ، حلم حلمت به الأرض الأسبانية فترة من الزمن ثم أنقضى تاركاً في الأجواء بقايا عطره السحري وأريج الذكريات . وتاريخ الأندلس جزء من التاريخ العربي أقامه العرب في أقصى الأرض المعروفة قبل ألف وثلاثمائة سنة فاستمر ثمانمائة سنة قبل أن تطفئه القوى التي تحالفت ضده ، لتجعله مجرد ذكرى ... « فللناس منها الصدى المسكر » !

وإذا اعتاد العرب أن يذكروا الأندلس بنوع من الحنين والاعجاب فلأنها كانت في التاريخ العربي ذات لون خاص ذهبي السمات ، رفاف التراث . عبرت فيه العبقرية العربية عن أبدع ماعرف حتى عهدها من الفنون والفكر والعمران . كانت للأندلس حضارتها المشتقة من الحضارة العربية بلى ! ولكنها ظلت تتميز على الدوام بطابعها الخاص الذي تمتزج فيه عبقرية الفكر بجمال البيئة وتسامح المجتمع المنفتح .... وشيء من الغنائية غير قليل !

كانت الاندلس آخر الفتوحات العربية في الغرب . وقد تميز فتحها بأنه كان أول دخول للعرب إلى القارة الأوروبية .كما أنه كان

انعطافاً في الفتح من الغرب الذي يعترضه المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) إلى الشمال ، بلاد الفرنجة . وكان إلى هذا وذاك آخر موجات الفتوح العربية في الغرب بعد أن تناءت الدار بين تلك الارضين وقاعدة العرب في الجزيرة العربية .

وكلمة الأندلس ليست عربية . لقد اشتقها العرب من كلمة فاندالوسيا ، وهو اسم مأخوذ من قبائل الفاندال الجرمانية التي استقرت في تلك المناطق الجنوبية من اسبانيا بعد هجرة طويلة من سواحل بحر الشمال وأعطت اسمها إلى تلك البقاع قبل أن يطردها القوط من هناك فتنتقل إلى شمالي افريقيا حيث أقامت دولة هزمها البيزنطيون فذابت مع أهلها في الخليط السكاني البربري — الروماني الفينيقي الموجود يومذاك في تلك البقاع .

أطلق العرب ، أول الأمر ، اسم الاندلس على اسبانيا الاسلامية جميعاً وعلى الجزيرة الايبيرية كلها حين سيطروا على معظمها . ثم تقلص هذا الاسم تدريجياً مع تقلص الواقع السياسي حتى صار لايدل على أكثر من الجنوب الاسباني ثم أضحى في النهاية مرادفاً لمملكة غرناطة في الزاوية الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة الايبيرية واستمر كذلك حتى مابعد سقوط هذه المملكة مطلع سنة ١٤٩٢ والى اليوم .

وأسبانيا أو شبه الجزيرة الايبيرية : (ويسميها العرب بالجزيرة أيضاً كما يسمون شبه جزيرة العرب بالجزيرة العربية) تقع في الجنوب الغربي من أوروبا وتسد البحر الأبيض المتوسط من الغرب حاجزة بينه وبين المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) وإذا كانت عقدة جبال

بيرنه (البرانس أو البرتات كما يسميها العرب) تربط مابين أوروبا
بين اسبانيا في شمالها بالممرات التي تقطعها فانها في الوقت نفسه تحول
بنها وبين الانفتاح الكامل على أوروبا فهي في شبه عزلة عنها . ويقوم
بحر المتوسط والمحيط الأطلسي في شرقها وغربها أما في الجنوب فيفصلها
ن البر الأفريقي المغربي ممر مائي ضيق ، قريب الاجتياز . وضيقه هو
لذي ربط بين هذه الأرض المربعة الشكل وبين البر المغربي في كثير
ن العصور . وأعطى اسبانياذلك اللون الخاص في تاريخها الحضاري .

وتضاريس شبه الجزيرة الايبيرية تشبه تضاريس المغرب أكثر
كثير من شبهها بأوروبا فهي جبال وهضاب تسير من الشرق إلى الغرب
تقطعها الوديان التي تسير فيها أنهار اسبانيا بالاتجاه نفسه تماماً كما في
جبال الأطلس ووديانها في المغرب . حتى كأن بحر العدوة أو الزقاق
يس أكثر من واد عميق من هذه الوديان المتوازية . وجبال البرتات
شبه في تكوينها جبال الاطلس وجبال الثلج (سييرا نيفادا Sierra Neuada
و جبال شلير كما يسميها العرب) حول غرناطة تشبه جبال الريف.
سهول الأندلس الجنوبية تحكي سهول المغرب المطلة على الأطلس ..
هذه الملامح الجغرافية زادت في تقارب اسبانيا من المغرب وفي الفصل
بينها وبين باقي أوروبا .

ويتقارب البران المغربي والاسباني عند المضيق المعروف اليوم
اسم مضيق جبل طارق . وهذا الجبل يقع في أقصى جنوب اسبانيا
هو ليس بكبير الارتفاع ويأخذ في عيني الناظر إليه من المغرب شكل

سرج الحصان (١) وأعلى قمتيه لاتجاوز ٤٣٨ متراً وقد عرف في التاريخ القديم بأسماء عديدة منها الاسم الفينيقي Mons Calpe أو الجبل المجوف بسبب وجود مغارة كبيرة فيه سماها الاسبان فيما بعد بمغارة القديس ميخائيل San Miguel كما سماه العرب غار الاقدام . ولما كان هذا الجبل يرتفع كالصخرة فوق المضيق فقد سماه العرب بالصخرة أيضاً، وبفرضة المجاز ،وجبل الفتح، وجبل طارق وهو الاسم الذي ثبت له ومايزال يسمى به إلى اليوم gibraltar في مختلف اللغات. نسبة إلى فاتح الأندلس طارق بن زياد .

والمضيق الفاصل بين البرين كان يعرف في القديم بأعمدة هرقل . فقد نسج الاغريق له اسطورة تقول إن البطل الاسطوري هرقل هو الذي فصل ، بقوته الخارقة ، البرين عن بعضهما ليصل البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي . وكان هذا الممر البحري يعتبر نهاية العالم بالنسبة للناس ، يومذاك . وقد سماه العرب اسماء مختلفة منها مضيق المجاز ، وخليج الزقاق ، والبحر الزقاقي ومضيق جبل طارق وبحر العدوة أو العدوتين . ولا يجاوز طوله ٨٠ كم وعرضه في أضيق جنباته ١٥ كم ويمكن أيام الصحو أن يرى الناظر أحدث شاطئيه من الشاطىء الآخر عند سبتة . وقد نجم عن هذا الضيق تأثيران متعاكسان ففي حين نشأ صراع تقليدي دائم بين البرين المتجاورين للسيطرة على المنطقة المحيطة

---

(١) هو التشبيه الذي ذكره له المؤرخ الاندلسي ابن سعيد المغربي حين أقبل من سبتة نحو البر الأندلسي مع والده فقال الوالد : أجز :

أنظر إلى جبل الفتح   راكباً متن لج

فقال : وقد تفتح مثل الأفنان في شكل سرج (المقري : نفح الطيب ج ١ ص ١٥١-٢).

بالمضيق سواء من جهة البر الاسباني أم البر المغربي باعتبار أن أحدهما منطقة أمان للآخر، نرى بالمقابل أن كلاً منهما كان امتداداً للآخر في الدم والصـــلات التاريخية، وفي التكوين الجغرافي والجيولـــوجي والانثروبولوجي، وفي الشأن الاستراتيجي ، وفي الأبعاد الاقتصادية والعسكرية والثقافية .حتى أن الأوروبيين قد لايعتبرون ماوراء جبال البيرنه إلى الجنوب جزءاً من أوروبا .

وإذا تجاوزنا العصور الانثروبولوجية القديمة وعهود السلف وجدنا أن علاقات اسبانيا الجنوبية خاصة مع بلاد شرقي المتوسط تعود إلى العهود الفينيقية . . فهذا الشعب السامي (العربي)الذي كان جانباً من الكنعانيين (١) سكان الشام الأقدمين ، انساح على شواطىء البحر الأبيض المتوسط الجنوبية حتى تونس حيث أقام مدينة قرطاجة واتخذها نقطة انطلاق ، بعد مدينة صور ، على جميع تلك الشواطىء . وحين انتهى إلى شواطىء المغرب انتقل منها بسهوله إلى البر الاسباني المقابل وأقام الصلة بين العدوتين . منذ الألف الثانية قبل الميلاد .

قام الفينيقيون ، على عادتهم ، بكشف المنطقة أولاً والتجارة فيها فترة من الوقت.ثم أخذوا في بناء المستوطنات الفينيقية التي تحول بعضها إلى مدن ماتزال قائمة حتى اليوم .ومنها على البر المغربي مدينة ليكسوس (وهي العرائس الآن) ومدينة تنجى Tingi (وهي طنجة

(١) مدلول كلمة كنعان يعني اللون الأحمر والأغريق أطلقوا على الشعب الكنعاني الذي كان يسكن شواطىء المتوسط الشرقية اسم فينيق وتعني المعنى نفسه ph oensix لتجارتة بالصبغة الحمراء الأرجوانية . كما أن الرومان استعملوا هذه الكلمة نفسها لتسمية هذا الشعب. ولكنهم كانوا ينطقونها بالباء بدل الفاء ومنها جاءت تسمية الحروب البونية .

الحالية) وروسادير (وهي الآن مليلة) أما على البر الاسباني المقابل فنجد ملقة Malaga الحالية وكان اسمها مالحة (وكانت لتمليح الاسماك وحفظها) ومدينة غادير (قادر) وتعني القلعة وقد سماها العرب فيما بعد قادس فهو اسمها حتى اليوم . ومدينة سكسي وقد عرفها العرب باسم المنكب واسمها الحالي مشتق من هذه الكلمة Almunacer وهي مصيف غرناطة . وقد سيطر الفينيقيون على المضيق وما حوله بعد أن أسسوا سنة ٨٠٣ قبل الميلاد مدينة قرطاجة في ساحل تونس (وتعني القرية الحديثة = قرت حدش Ouart Hadasht) فترة تزيد على أربعة قرون مابين القرنين الثامن والرابع قبل الميلاد ولم يكونوا يترددون في إغراق أي سفينة لاتخضع لتفتيشهم وأوامرهم وهي تجتاز المضيق .

ولم يكن استيطان الفينيقيين لهذه المناطق توسعاً سياسياً حربياً ولكن كان توسعاً اقتصادياً ثقافياً فقد حركوا العملية التجارية هناك بين العدوتين . ونقلوا على سفنهم معادن اسبانيا والمغرب من الفضة والقصدير والذهب (المستخرج من نهر الوادي الكبير) والرصاص والملح . وتاجروا بالاسماك ومنها (سمك الطون) الذي رسموه على نقودهم . ومنحوا البلاد المغربية لغتهم السامية فآثارها باقية في البربرية إلى اليوم . ونقلوا إلى تلك البقاع حروف الهجاء التي ابتكروها في المشرق . كما علموا الشعوب هناك بعض الزراعات كشجر الأرز والصنوبر الذي جعل تلك المناطق ودياناً وجبالاً كثيرة الغابات وارفة الظلال .

ظلت قرطاجة سيدة الحضارة الفينيقية بعد أن دمر الاسكندر المقدوني مدينة صور الأم سنة ٣٣٢ ق.م فقد ظلت تحتفظ بسيطرتها على الحوض

الغربي للبحر المتوسط بين غياب صور والحوض الشرقي لكنها اصطدمت بسرعة مع مطامع روما التي كانت قد توسعت في أيطاليا وأخذت في منافسة قرطاجة على تجارة غربي المتوسط. وما لبثت أن قامت الحروب بين الطرفين وهي الحروب التي عرفت بالحروب البونية (الفينيقية) Bellum Punicum منذ القرن الثالث ق.م ، واستمر الصراع طويلاً بين الطرفين أكثر من مائة سنة (٢٦٤ — ١٤٩ ق.م) وبرز فيها البطل القرطاجي هانيبعل الذي استدار بجيوشه من المغرب فعبر المضيق إلى اسبانيا ومنها إلى جنوب فرنسا واجتاز جبال الألب وشمال ايطاليا ليحاصر أسوار روما.وكان عبور المضيق أحد الأسباب الأساسية وأحد المواقع الاستراتيجية للصراع الذي انتهى بهزيمة قرطاجة وانتحارها . وبلغ الحقد عليها من الرومان أنهم أحرقوها ثم حرثوا أرضها وأصدروا لعناً لمن يعيد بناءها .

كانت نتيجة تلك الحروب سيطرة الرومان على حوض المتوسط الغربي وعلى المستوطنات الفينيقية فيه بما في ذلك مضيق أعمدة هرقل وما حوله.وانقطع بذلك التأثير المشرقي عن المغرب وأسبانيا مدة سيطرة الرومان على حوض البحر المتوسط أي حوالي ستة قرون (٢١٨ ق.م — ٤٠٩م). تحولت خلالها قرطاجة إلى ولاية رومانية .وتحولت مستوطناتها إلى مدن رومانية ذات طابع روماني في المباني والمؤسسات وفي اللغة والعادات أيضاً . التأثير المشرقي الوحيد الذي اخترق هذا الحاجز الغربي الكثيف وانتصر عليه فيما بعد كان الديانة المسيحية . التي أوغلت في انتشارها ضمن الامبراطورية الرومانية حتى أزاحت الديانات الأخرى. ووصلت المغرب من اسبانيا. فأضحى حوض المتوسط كله مسيحياً

في نهاية القرن الرابع للميلاد . وقد انتشرت هذه الديانة في المغرب واسبانيا في وقت واحد تقريباً وتركزت في المنطقة الجنوبية من اسبانيا خاصة حتى لقد عقد المجمع الكنسي سنة ٣١٤ م في مدينة البيرة (غرناطة) وفي مدينتي طنجة ووليلي من البر المغربي منذ أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع للميلاد .

وكما جرى في الامبراطورية الاسلامية مع شعوب الترك من بعد ، جرى في الامبراطورية الرومانية مع قبائل الجرمان من التيوتون والقوط من قبل . فقد استخدمت كل من الامبراطوريتين هذه الشعوب البدوية القوية عبيداً ومرتزقة أول الأمر .وحين تبين الضعف في قواتهما الذاتية مالبثت العناصر البدوية أن تجمعت ، مع التكاثر ، في هجرات بشرية غزت أراضي الامبراطوريتين . وهكذا فقد تعرضت الامبراطورية الرومانية حين ضعفت في القرن الرابع لهجرة الجرمن من أطرافها الشمالية فيما وراء الدانوب والرين . وانساحت في أراضيها شعوب عديدة من هؤلاء. وإذا كان بعضهم قد وصل روما ودمرها . فان قسماً من شعوب القوط هم الفيزيقوط تدفقوا إلى اسبانيا ثم تلاهم الواندال الذين استقروا في جنوبها قبل أن يخرجهم القوط عبر بحر العدوتين إلى شمالي افريقيا سنة ٤٢٩. وإذا استطاع هذا الشعب المطرود أن يستولي على الشمال الافريقي كله ويأتي روما من الجنوب فينهبها خمسة عشر يوماً سنة ٤٣٩ فان سيطرته على المنطقة لم تدم إلا قرابة القرن . واستطاع القائد بليزاريوس ، قائد الامبراطور جستنيان صاحب بيزنطة أن يقود زعماء الواندال عبيداً إلى القسطنطينية سنة ٥٣٣ .وذاب شعبهم من بعدهم في سكان الشمال الافريقي فلم تقم له قائمة من بعد .

وهكذا ، بالاضافة إلى أعمال حربية أخرى صارت بيزنطة سيدة البحر المتوسط . بما فيه اسبانيا والمغرب فترة من الوقت تبلغ سبعين سنة. ثم أخرجها القوط بعد ذلك من اسبانيا ومن بعض ثغور المغرب خشية أن يأتيهم غزو من الجنوب . كان هذا هو الوضع السياسي للمنطقة حين وصل العرب فاتحين إلى مياه بحر الظلمات بقيادة عقبة بن نافع ، عبر المغرب كله .

لم يكن قد مضى على الفتوحات العربية الكبرى يومذاك إلا حوالي نصف قرن ، كان الخصم الأساسي للعرب في البحر الأبيض المتوسط وما حوله هي الدولة البيزنطية التي فقدت في صراعها معهم شرقي هذا البحر وجنوبه.وقد رأى العرب وهم قوة برية كبرى أنهم رغم حصار القسطنطينية سبع سنوات ورغم انتصارهم بمعركة ذات الصواري البحرية وبنائهم الأسطول في شرقي البحر المتوسط لم يستطيعوا فتح تلك المدينة الاستراتيجية العصية ولذلك قرروا أن يأتوها من الغرب ، من البر الأوروبي ، رغم طول الطريق وصعوباته . وهكذا كان توسعهم في المغرب نتيجة تصميمهم على كسر أجنحة العاصمة البيزنطية في الغرب،وتحطيم قواها،ومحاولة العبور إليها عبر صقلية وجنوب ايطاليا والبلقان . كان المشروع طموحاً جداً لأنهم لم يكونوا يقدرون مصاعبه تمام التقدير. أو لم يكونوا يأبهون لها . وتمركزوا في القيروان ، المدينة التي بنوها في تونس قاعدة عسكرية . لكن القوى البيزنطية البحرية والبربرية البرية لم تتركهم في سلام. لاسيما وأن قلة أعدادهم مع بعدهم عن قواعدهم في الجزيرة والشام كان يحرمهم ، من المدد الواسع الكثيف . وجرتهم المقاومة البربرية مع اعتمادهم على القوى

البرية بعيداً حتى سواحل بحر الظلمات . ولما كان قواهم البحرية في تلك الأصقاع ماتزال ضعيفة فقد تعرضوا لضربات قاسية من الأسطول البزنطي الذي ركز قواه هناك. حتى لقد انتقل الامبراطور البزنطي قسطنطين الثاني خليفة هرقل من القسطنطينية إلى صقلية « لحماية الأم — روما كما قال — وهي أم الملك ومركزه — قبل حماية البنت . وإذا اغتيل في شرقي صقلية سنة ٦٦٨ بمدينة سرقوسة (وهي سنة ٤٩ ه . أيام معاوية) فان خلفه وابنه قسطنطين الرابع تابع السياسة نفسها في حماية الغرب البيزنطي من الاكتساح العربي . وبهذا الشكل أضحت صقلية القاعدة البحرية الأساسية للبيزنطيين في مقاومة التوسع العربي الذي تركز في القيروان .

دفع العرب غالياً ثمن ضعف قواهم البحرية في الغرب لمساندة تحركهم البري فقد قتل القائد التابعي عقبة بن نافع الفهري ، رغم عودته من الفتح ، على طريق يماشي سيف الصحراء.فقد تمكن البزنطيون من التحالف مع الزعيم البربري كسيلا ، وأنزلوا قواتهم خلف جناحه الأيمن وطوقوه سنة ٦٤/ ٦٨٢ عند بلدة بسكرة الواحة الصحراوية الفقيرة في قرية هناك تدعى سيدي عقبة . وتكرر الأمر مع القائد الذي تلاه على إمارة افريقية فقدتمكن من هزيمة كسيلا .لكن القوى البزنطية قطعت عليه خط الرجعة على الساحل الليبي فاستشهد مع معظم أصحابه سنة ٦٨٧/٦٩ م .

تنبه العرب بهذين الحادثين ، مع حوادث أخرى ، إلى ضرورة بناء قواعد بحرية اسلامية في شواطىء المغرب . فلما تولى حسان بن النعمان الغساني جعل همه في بناء الاسطول البحري فأقام قاعدة له

في ميناء تونس ، بجانب قرطاجة القديمة ، وأتى بالحرفيين من بناة السفن من مصر والعارفين بالملاحة ثم جاء من بعده موسى بن نصير سنة ٨٥/٧٠٤ م فوصل بدوره الحضاري وبقوته البحرية إلى المستوى الذي يناجز الأسطول البيزنطي . وبهذا الشكل منع هذا الأسطول من التدخل في أحداث المغرب. أو بسط السيادة الاسلامية على المغرب كله . لم يستعص عليه سوى ميناء سبتة الذي كان يسيطر عليه القوط الاسبان . فعين مولاه طارقا بن زياد على ثغر طنجة لمراقبة هذا البلد .

وانصرف موسى إلى القواعد البحرية البيزنطية في غربي المتوسط يضربها في صقلية وسردانية والجزر الشرقية (الباليار) وكورسيكا مما شل حركة الاسطول البيزنطي على تلك المياه وأعطى موسى فكرة متابعة الفتوح عبر بحر العدوة .

كانت سياسة الأمويين مختلفة في هذه الناحية عن سياسة العباسيين الذين خلفوهم في الحكم . كانوا يعتبرون أي فتح قاموا به لأي جبهة بدءاً لفتح آخر، ومنطلقاً لنصر جديد ، في حين تلاهم العباسيون فاعتبروا الحدود التي ورثوها عن الأمويين نهايات للدولة، ومراكز امتناع ودفاع . الصفة الهجومية التي اتصفت بها السياسة الأموية هي التي دفعتهم لاجتياز المضيق بين العدوتين إلى العدوة الأخرى فحدودهم حيث تنتهي سنابك خيلهم، وليس حيث تقوم نهايات الحدود . وعلى الرغم مما يظن الكثيرون. وبخاصة مما يصر عليه المستشرقون من أن الفتوحات كانت عشوائية ارتجالية، فالواقع يكشف أن العرب كانوا إنما يصدرون في أعمال الفتح عن تخطيط مسبق واستراتيجية منظمة .

ولم يسجل العرب فتوحاتهم في عهودها . وتأخروا في تسجيلها . وهذا التأخير جعلها في عيون المؤرخين في العصور اللاحقة ، وعصور العجز السياسي أشبه بالمعجزات. ولففها مع النسيان بكثير من الأساطير والمبالغات. ونقلها من المستوى البشري أحياناً كثيرة إلى مستوى الخوارق الإلهية التي ترعى المسلمين وتمهد لهم النصر . والواقع أنها أعمال بشر لبشر. وقد دفع الفاتحون المسلمون ثمنها غالياً جداً من الأشلاء والدماء وأكوام القتلى في مختلف الساحات . ولم تأتهم المعجزة من السماء لأنهم كانوا يصنعونها بأيديهم،وبجبروت الارادة الصلبة والعقيدة الراسخة . لكن الثغرات الناجمة عن النسيان مع الأيام وغلبة الانبهار بالأحداث والرغبة في الالتصاق بالمعجزة ،كل ذلك غيب المرارات التي قاساها الفاتحون المسلمون وراء غمائم من التفاسير كلها أحلت القصص والخوارق محل الواقع التاريخي الذي نسي كلياً أو جزئياً . كان هذا حال الفتح الأندلسي فهو لم يكن مغامرة اجترحها طارق بن زياد ونجحت . ولكنه كان خطة أعدت لها وسائلها ومقدماتها وأهدافها وطرق تنفيذها وكانت لها بدائلها .... والضحايا . وكان قادة المسلمين على الدوام أحرص على أرواح جندهم من أن يدفعوا بهم في مغامرات مجهولة العواقب .

وما من شك أولاً في أن العرب قد عرفوا أشياء كثيرة عن اسبانيا المجاورة لهم . وعن خصب أرضها وما فيها من مغريات الغنائم .وأهم من هذا ما لموقعها الاستراتيجي من شأن ومن خطر عليهم.وهذا وذاك يشبه ما شعر به عمرو بن العاص وهو في فلسطين من امكان ومن ضرورة فتح مصر ومن مغريات ذلك ودوافعه .

وما من شك ثانياً في أن موسى قد استشار الخليفة وهو الوليد بن

عبد الملك ، في أمر الغزو وبسط له أسبابه ومشروعه فنصحه « أن يختبر (الاندلس) بالسرايا ولايغرر بالمسلمين » (١) . واتبع موسى هذه النصيحة وأختار أولاً أن يدفع بصاحب سبتة لجس النبض . وكان بين هذا الرجل المسمى يوليان وبين ملك القوط ضغائن شديدة حتى ليقال إنه الذي أغرى ابن نصير بالغزو.ولعل العكس هو الصحيح فقد أغراه موسى ووعده بالمساندة. فغزا يوليان الساحل الجنوبي بمركبين من الجند وعاد وأيدي الجميع ملأى بالغنائم . وشدد ذلك من عزائم موسى فاستدعى أحد قواده المسمى طريف بن مالك النخعي وأرسله في مائة فارس وأربع مائة راجل (رمضان ٩١ / تموز ٧١٠) فنزل في الموضع الذي يعرف حتى اليوم باسم وأغار على الجزيرة الخضراء وعاد بالسبي والمال . وعند ذلك تبين موسى أن ردود فعل القوط أضعف من أن تقف لجيشه.وأن المقاومة لن تكون بالقدر الذي توحي به سعة المملكة القوطية.فأرسل عند ذلك بعثاً ثالثاً قاده مولاه طارق بن زياد . ويظهر من العدد المحدود من الجند الذي دخل به طارق إلىالاندلس أول الأمر . ثم من النجدات التي رفده بها موسى بعد ذلك، ثم من لحاق موسى به لاستثمار النصر ، أن الجماعـــة الأولى التي رافقت طارق بن زيـــاد لم تكن اكثر من محاولة ثالثة للاستطلاع ومعرفة مدى المقاومة القوطية . بعد أن أطمأن موسى تماماً إلى أن « لم يبق في البلاد من ينازعه » . داخلياً .

وتذكر المصادر أن جماعة الفتح كانت جيشاً برياً وأنها اعتمدت سواء في غزوة طريف أو في غزوة طارقعلى مراكب الحاكم يوليان أو

---

(١) أنظر في ذلك ابن عذارى : البيان المعرب ج ٢ ص ٦ وأخبار مجموعه ص٦ ونفح الطيب ج ص ٢٣٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٩٦ .

مراكب الروم . وإذا كان صحيحاً أن الجيش كان قوى برية فقط فيبدو من الواقع التاريخي أن المراكب التي نقلته لم تكن إلا مراكب عربية. فمن يستطيع غزو جزر المتوسط المختلفة من صقلية إلى سرادنية إلى جزر الباليار ،وكان اسطوله منثوراً على طول الساحل المغربي لا يعجزه أن يوفر الأسطول الكافي لنقل جنده عبر المجاز الضيق بين العدوتين المغربية والاندلسية . عـدا أن الاعتمـاد على المراكب الأجنبيـة أمر يتنافى مع سياسة الأمويين وسياسة موسى نفسه ، ويغرر بأرواح المسلمين ، ثم إنه من غير المعقول أن تستطيع أربع سفن قدمها يوليان — كما يقولون — نقل جماعة عسكرية عددها في أقل تقدير سبعة آلاف محارب عدا العدد والخيل . وأخيراً فان طارقاً نفسه كان تحت يده وهو في طنجة أعداد شتى من السفن (١) ولا يحتاج معها إلى غيرها . وهذا كله لايمنع أن يكون يوليان قدم بعض المعونة في سفنه .

وإذا اختلف المؤرخون حول شخصية طارق نفسه فقال بعضهم : إنه فارس من قبيلة الصدف العربية أو مولى لهم (وهي من قبائل كهلان اليمنية التي انتشرت في المغرب.وثم قرية باسمها قرب القيروان). وقال آخرون بتقريبه من الفرس وأنه همذاني الأصل . فالرأي الأرجح أنه بربري الأصل من قبيلة زناتة واسمه الكامل — كما روى الادريسي —

(١) أنظر ابن الكردبوس الاكتفاء (نصر جديد عن الاندلس) في مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد سنة ١٩٦٥ ص ١٢ وعبد الملك بن حبيب (في مجلة المعهد سنة ١٩٥٧) ص ٢٢١ وابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ١١٥ وابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٢٠ وص ٨ وأخبار مجموعة ص ٧ وابن خلكان ٦ : وفيات ج ٢ ص ٤٠٣ .

طارق بن عبدالله (زياد) بن ونمر الزناتي (١) ويظهر أن أباه هو الذي كان من موالي العرب.وتسمى بزياد ،بعد أن أسلم . ولنلاحظ أن معظم جند طارق يوم الفتح إنما كانوا من البربر .

وتتحدث المصادر العربية عن نزول طارق إلى البر الاسباني في سهولة ويسر . والواقع أن الأمر لم يكن كذلك أبداً ولقد لقى الشاطىء عند الجزيرة الخضراء ، حيث أزمع النزول محروساً فقد كانت هجمات يوليان ثم طريف انذاراً كافياً للقوط كي يأخذوا حذرهم من أي غزو يصيب قاعدتهم الهامة الاستراتيجيةعند جبل طارق . ووجد طارق المقاومة العنيفة هناك وهو ما يزال على الشاطىء . فقام في الليل بحركة التفاف بارعة حول المرابطين في الجبل وتسلقه مع جنده من موضع صخري وعر على المجاديف وبرادع الدواب . وفاجأهم من حيث لا يحتسبون فأوقع بهم وغنم الموقع . ثم تمركز فيه وبنى سوراً حول جنده ظل يسمى سور العرب .كما حمل الجبل بعد ذلك اسم:جبل الفتح . وكان هذا هو هو النصر الأول الذي وضع أقدام العرب المسلمين على أول نقطة من البر الاوروبي .

وثم ها هنا أمران اشتهرا في التاريخ العربي حتى أضحيا من الحقائق الكلاسيكية التي يرددها الناس لما فيهما من الجو الروائي الرائع ، ومن منح الفتح الصفة الدرامية . فالمؤرخون يتحدثون عن عملية احراق السفن التي جاء طارق بجنده عليها ليقطع أملهم في العودة ، أو ليجعل العرب الذين لايثقون به يؤمنون أنه جعل نفسه والبربر الذين معه أمام مصير واحد معهم . كما يتحدثون عن خطبته الأدبية الرائعة في رجاله : أيها الناس

---

(١) أنظر القسم الخاص بالاندلس من جغرافية الادريسي نشر وترجمة كونده ص٣٦.

أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الصدق والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام وقد استقبلكم العدو بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لاوزر لكم إلا سيوفكم ولا قوت إلا ما تستخلصونه من عدوكم . . . . » وتجوم الشكوك حول هذه الرواية كلها . . . التي تشبه الخيال المسرحي فقصة إحراق المراكب إنما رواها أول من رواها الادريسي في نزهة المشتاق وابن الكردبوس وهما من القرن السادس للهجرة ثم رواها الحميري صاحب الروض المعطار بعدهم فلماذا لم يذكرها المؤرخون السابقون على مدى خمسة قرون سابقة ؟ والعملية نفسها تروى عن عدد من القواد الذين سبقوا طارقاً (كأرياط الحبشي الذي عبر البحر إلى اليمن وعن القائد الفارسي الذي رافق سيف بن ذي يزن إلى اليمن ، وعن الذين لحقوا به) كأسد بن الفرات ، فاتح صقلية ، والقائد الاسباني كوارتز فاتح المكسيك وسفاحها). ولماذا يحرق طارق السفن ولا يأمرها بالعودة إلى ساحل المغرب ولا يوجد بينها وبينه إلا ساعتان في البحر ؟ وكيف يحرق اسطولاً لايملكه ؟ وقصة الخطبة قصة أخرى (١) إنها بليغة جميلة شائعة ولكن الشكوك تحف بها بدورها . فمن أين لابن زياد هذه البلاغة ؟ وكيف يخاطب جنداً كانوا في جمهرتهم من البربر الذين لايفقهون العربية ، فقضية احراق المراكب مبالغ فيها على الأرجح . ولقد يكون طارق قد خطب في رجاله . وقال شيئاً في معنى الخطبة المسرحية ولكن الرواية شذبت الخطاب وأعطته الصيغة البلاغية التي اشتهر بها

---

(١) أول من روى شيئاً عن خطبة طارق ولم تكن بالنص المعروف هو المؤرخ ابن حبيب من رجال القرن الثالث الهجري وكتاب الإمامة والسر المنسوب لا بن قتيبة الدينوري من القرن الثالث أيضاً . ثم ابن خلكان من القرن السابع والمقري في نفح الطيب من القرن الحادي عشر .

وجعلته باللغة العربية ولعله كان في الاصح خليطاً منها ومن البربرية . والأمثلة على مثل ذلك كثيرة .

كانت الخطوة الثانية لطارق أنه أقام قاعدة عسكرية بجوار جبله على الساحل، لتلقي المعونات فيه وحماية ظهره عند احتمال الانسحاب. وقد أصبحت هذه القاعدة فيما بعد مدينة تعرف بالجزيرة الخضراء أو جزيرة حكيم (على اسم جارية، تركها طارق هناك) وهي ذات موقع استراتيجي مفتوح على سبتة المغربية القريبة في حين تقوم الجبهة الجبلية بينه وبين باقي اسبانيا . ثم أقام قاعدة أخرى في موقع مدينة طريف وجعل عليها طريفاً نفسه . وأقام الاسوار حول القاعدتين . فلما أوغل بعد ذلك في داخل البر الاسباني كان ظهره محمياً كما كان باب النجدات أو الانسحاب وراءه مفتوحاً . ولم يجاوز في ايغاله حوالي مائة كم حتى كان الجيش القوطي يقف في وجهه بكل قواه . يقوده الملك بنفسه لذريق مع أنه كان مشغولاً في الشمال بثورة البشكنس (الباسك) وهذا يدل على أنه لم يفاجأ بالغزاة المسلمين وكان يعد نفسه للقائهم السريع ويعرف بتحركاتهم .

علم طارق من عيونه الذين بثهم، وهو يزحف إلى الغرب محتمياً بالمرتفعات الساحلية الجنوبية بحشد الملك لذريق وضخامته. فخشي العاقبة وهو في ثمانية آلاف. وبعث يستنجد مولاه موسى قائلاً «وإن الامم قد اجتمعت علينا . وأن الملك قد زحف بما لاطاقة لي به » وهذا يؤكد أنه إنما كان بعثة استطلاع واسعة ولم يكن ينتظر هذا الحشد الملكي ضده . وأمده موسى بخمسة آلاف محارب ، في نجدة يبدو أنها كانت المعركة الفاصلة بين الطرفين، والتي حددت مصير الطرفين، عند بحيرة تعرف باسم لاخندا Laguna de la Junda في الكورة التي سماها العرب شذونة . وكانت

معركة اقتتل فيها الطرفان القتال الشديد حتى ظنوا أنه الفناء » (١) ودامت ثمانيـــة أيام (من الاحــد ٢٨ رمضان حتى الأحــد ٥ شوال ٢ / ١٩ — ٢٦ تموز ٧١١) ويبدو من اختلاف المؤرخين في تحديد موقعها أنها لم تقع في مكان واحد . ولكن كانت سلسلة من المعارك في أماكن متعددة . فهناك من يقول بوقوعها عند وادي لكة شمالي شذونة قرب شريش.وآخرون في الجنوب عند وادي نهر البرباط الذي يخترقالبحيرة. وفريق ثالث يقول بوقوعها عند نهر سلادو عند البحيرة أو عند موقع السواقي Segoyela في ولاية شذونة نفسهـــا وقد قتل الملك لذريق في من قتل في المعركة عند هذا الموقع . وبقيت عظام القتلى في موقع المعركة دهراً طويلاً لم تذهب (٢) بعد ذلك .

هذه الواقعة التي لم تكن في المغرب مقتلة أعظم منها؛أسلمت اسبانيا للفاتحين المسلمين. وضمت أول قطعة مـــن أوروبا إلى الخلافة العربية في دمشق. ونحن ندين بها إلى قيادة طارق وشجاعة رجاله وإلى الذين تركوا عظامهم على ذلك الصعيد . وفتح الطريق أمام طارق بن زياد حتى طليطلة عاصمة القوط. وعلى الرغم من خسائره في معركة وادي لكة وعدد جنده المحدود فقداستطاع أنيبعثبقسممن هذا الجند إلى قرطبة بقيادةمغيث الرومي،مولى عبد الملك بن مروان،فحاصرهاثلاثةأشهر حتى سقطت . في حين انصرف طارق إلى قلعـــة استجة في طريقه Ecige فاستولى عليها.واكمل طريقه إلى العاصمة فدخلها دون مقاومة تذكر . كان الفتح التـــالي للمعركة الكبرى سهلاً لا تقف دونه إلا الحصون

(١) ابن عبد الحكم : فتوح افريقية والأندلس (الجزائر ١٩٤٨) ص ٩٦ .

(٢)—ابن عذارى : البيان المغرب (ط . بيروت) ج ٢ ص ١٠ .

الحجرية . أما المحاربون فكانوا شراذم محدودة حتى إن العاصمة كانت شبه خالية تقريباً حتى من أهلها (١) ووقع في أيدي الفاتحين ما فيها من ذخائر وكنوز .

ومع أن طارقاً كان مطمئناً إلى ضعف المقاومة فانه في إيغاله في قلب البر الاسباني كان مهدداً بقطع طرق مواصلاته في هذه المناطق الجبلية الوعرة التي تقطعها الأودية عرضانياً . وكان جنده محدوداً لايكفي لمتابعة الفتح، وقد تعبوا بعد أن قضوا الشتاء في اسبانيا، وأثقلوا بالغنائم، ومالوا إلى العودة لبيوتهم. فاستنجد بمولاه موسى الذي عبر البحر بعد سنة من الفتح (رمضان ٩٣ / حزيران ٧١٢) بجيش كبير يبلغ ثمانية عشر ألف محارب ، معظمهم من العرب من القيسيين واليمانيين ، وفيهم عدد من التابعين . هذه الحملة التي ثبتت أقدام الفاتحين في اسبانيا عرفت فيما بعد بطالعة موسى .

أتى موسى على غير الطريق التي سار عليها طارق، من الغرب فاحتل قرمونة واشبيلية وماردة ولقي طارقاً على نهر التاجو قرب طليطلة فسار القائدان معاً حتى جبال البرت Pirentes (البيرنة) على حدود الفرنجة. وسقطت في أيديهما المدن كالثمار الناضجة ، سرقسطة . وشقة . لاردة ومن الصعب قبول ذلك التفسير الشخصي الذي يجعل مجيء موسى إلى أسبانيا نتيجة حقد أو حسد لمولاه طارق وإنما جاء موسى وعن طريق آخر لإحكام الحصار ، كالكماشة ، على المواقع الاسبانية ولافتتاح المزيد منها . وقد بقي الاثنان بعد ذلك حوالي السنتين يعملان معاً في اسبانيا حتى أرسل الوليد بن عبد الملك يستدعيهما إلى دمشق. فتحركا معاً

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٧

وسافرا معاً إليه أواخر ٩٥ / ٧١٤ بعد أن كانت معظم شبه الجزيرة الاسبانية قد وقعت في أيدي المسلمين . لم يبق منها ناشزاً سوى بعض الأطراف الشرقية والشمالية الغربية للتصفية . وقد فتحت الأطراف الشرقية على يد الأمير عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي خلف أباه في الاندلس . وكانت المقاومة قد تركزت في كورة تدمير وعاصمتها أوريولة ، المدينة الحصينة.ولكنها سقطت في هدنة مع الجيش الاسلامي على أن يستقل حاكمها بولايتها بموجب معاهدة عقدت معه شبيهة بالمعاهدات التي كانت تعقد في المشرق أيام الفتوح . ويدفع الحاكم للفاتحين الجزية السنوية.ويبدو أنها لم تكن المعاهدة الوحيدة وأن مدناً أخرى فتحت على الأساس نفسه ولكن التاريخ لم يحفظ لنا سوى هذه المعاهدة .

أما الركن الشمالي الغربي (غاليسية أو جليقية وأشتورياس Asturias وقنتبرية فكان منطقــة جبلية باردة . اعتصمت بها بعض الفلول من الجيش القوطي سنة ١٠٠ / ٧١٨ بزعامة قائد يدعى بلايو Playo (توفي ٧٣٧) نسجت حول مقاومته الأساطير . وقد استهان الفاتحون به لالتجائه إلى رؤوس الجبال . وقالوا : ثلاثون علجاً ما عسى أن يجيء منهم ؟ ولكن هذه الجماعة الصغيرة أضحت فيما بعد النواة التي قامت عليها دولة (ليون) ثم استطاعت في فترة الضعف والانقسام في الاندلس أن تتوسع على حساب الأراضي الاسلامية فيما سمي ، من بعد ، حركة « الاسترداد » وبعد أن اتحدت مختلف القلاع على حدودها وسيطرت عـــلى المملكة الشمـــالية ، حملت اسم مملكة قشتالة Castilla

(١) تعرف هذه الحادثة في التاريخ الاسباني باسم مغارة اونغا Coua donga على اسم القمة العليا للجبال هناك ويعتبرها الاسبان نصراً على الفاتحين ويربطون بها مختلف الآثار التي ترتبت عليها في القرون التالية .

وهي المملكة التي أعادت ، فيما بعد ، اسبانيا مسيحية وصارت لغتها هي اللغة الاسبانية الحالية .

هكذا قضى طارق أولاً وخلال أشهر على مملكة بأسرها في فتح لانظير له.ثم جاء موسى فأجهز على بقيتها . وأسباب الهزيمة القوطية عديدة.ويجب أن لاننسى فيها تطويق موسى لاسبانيا في البحر بغاراته المستمرةفي الحوض الغربي للمتوسط..وقطع أسباب التجارة عنها.ونقمة عبيد الأرض والمأجورين فيها على الأسياد.ثم النزاع الذي نشب في داخل اسبانيا على الحكم الذي اغتصبه قبيل الفتح بقليل لذريق من صاحبه غيطشة،حتى تقاعس عنه الجيش وجماعة النبلاء، ثم خيانة اليهود هناك لإرغامهم على التنصر،مما جعل الفتح الاسلامي بتسامحه فرصة للتحرير والانقاذ . وفيما كان موسى يدخل دمشق بموكب الظفر ، كقواد الرومان في أربعمائة أمير من القوط على رؤوسهم التيجان وعلى أوساطهم المناطق الذهبية ومن حولهم آلاف الأسرى يحملون الغنائم،كان ابنه عبد العزيز الذي خلفه على الاندلس يتابع الفتح وتنظيم البلاد . وقد تم فتح الجزيرة الاسبانية كلها تقريباً في مدة لاتزيد على سبع سنوات .

ولم يقف انسياح الفاتحين عند جبال البيرنة (البورتات) العصية . لقد تجاوزوا في اندفاعهم الحماسي هذا الحاجز المنيع إلى ما وراءه . وأول من قطعه هو ثالث ولاة الاندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفي وخلفه السمح بن مالك الخولاني الذي استطاع ٣٥١ ه / ٧٢٠ م (أيام عمر بن عبد العزيز) أن يخضع الجنوب الفرنسي وأن ينزل أربونة (١) ويجعلها حصناً للمسلمين ويقيم فيها قاعدة حربية . ولكنه استشهد أمام

---

(١) هي ناربون الحالية في جنوب فرنسا .

طلوشة (تولوز) . وتبعه بعد ذلك عبدالرحمن بن عبد الله الغافقي الذي وصل في الفتح أبعد نقطة وصلها العرب شمالاً عند مدينة تور على نهر اللوار بعد أن أحرق بوردو ودخلها عنوة . والتقى الغافقي هناك بالجيش الفرنجي ، وكانت موجة الفتح قد استنفذت كل قواها. وابتعدت قواعد الجند عنهم . فخسر الغافقي المعركة . وقتل فيها بزلقة من حصانه . وقد جعل الفرنجة من هذه المعركة (التي تعرف لدى العرب ببلاط الشهداء ولديهم بمعركة بواتيه) أسطورة واسبغوا عليها مختلف الزخرف وجعلوا تاريخها في رجب ١١٤ هـ / تشرين الأول ٧٣٢ حداً فاصلاً في التاريخ . وصوروها معركة أنقذت العالم المسيحي من الاسلام . وإن كان بعضهم يعتبرها نكبة،ويعتبر قائدها شارل مارتل (المطرقة) قائد البربرية ضد المدينة .

والواقع أن الزحف الاسلامي لم يتوقف إلا باتجاه الشمال.ولكنه استمر باتجاه الشرق على ساحل فرنسا الجنوبي،واستقر هناك فترة طويلة تزيد علـى ثلاثة قرون بعـد أن فتح آفينيون ١١٦ / ٧٣٤ ووصل حتى ليون ١٤٢ / ٧٥٩ م وحتى لوزان.ولما لم يكن جيش الفتح كافياً للهيمنة على البلاد ، وقد نجم الخلاف بين البربر والعرب فيه، فقد سير الخليفة هشام بن عبد الملك من الشام قوة ضخمة تقدر بسبعة وعشرين ألفاً مهمتها تهدئة الثورة التي كانت قائمة ضد سياسته في الأراضي المغربية ، ودعم القوى الاندلسية يقودها بلج بن بشر . واجتاز هذا القائد ما بين العدوتين في تسعة آلاف من أهل الشام توزعوا في الاندلس.فبعض من أهل حمص نزل اشبيلية . وبعض من فلسطين نزل شذونة والجزيرة الخضراء.وبعض من دمشق نزل إلبيرة . ونزل أهل قنسرين في جيان .

ولما كانت الاندلس بعيدة الموقع عن مركز الخلافة وقوته كان أمراؤها أشبه بالخلفاء الصغار . وهكذا ازداد الشقاق بين العناصر الفاتحة المختلفة التي يريد كل منها أميراً من عصبيته لاسيما مع ظهور الشيعتين بين العرب من قيسية ويمانية، إضافة إلى العصبية البربرية . ونتيجة لذلك تعاقب على الأندلس ، ما بين أواخر العهد الأموي ومطالع العصر العباسي (١١٤ / ١٣٨ / ٧٣٢ – ٧٥٥) ما لايقل عن ثلاثة وعشرين أميراً مختلفي الأهواء السياسية والدينية . في حين كان القيسيون اكثر ميلاً إلى السنة واليمانيون إلى التشيع أما البربر فكانوا مع المذهب الخارجي الذي شاع إذ ذاك في المغرب .

كانت إدارة الاندلس تابعة أول الأمر لوالي المغرب في القيروان وإن كان الجيش أو الخليفة أحياناً هو الذي يختار الوالي بها . وكان أنموذج الحجاج بن يوسف وخالد بن عبد الله القسري في المشرق يغري الخليفة بدمشق بقيام وال في المغرب مثلهما ولكن الخلفاء لم يوفقوا لأنهم لم يلاحظوا الفرق بين جناحي الدولة . فكانت تبعية الأندلس لوالي المغرب اسمية دوما. وكان مقر واليها في اشبيلية. ولكن السمح بن مالك الخولاني رابع الولاة نقل دار الإمارة إلى قرطبة. وانفرد الأمراء من بعده في الأمر فكانوا أشبه بالخلفاء الصغـــار في ذلك القطر القصي . ولم تكن سيطرة دمشق عليهم سيطرة كاملة . وقبل أن تنتقض الدولة الأموية بسنوات كانت الأندلس تضطرب ، كالمغرب ، في انتظار مصير جديد . وجاء سقوط الامويين في المشرق ليعطيها الفرصة بالانفصال عن الخلافة وقيام إمارة خاصة بها، كان مؤسسها أموي هارب من مذبحة الشرق هو المعروف بعبد الرحمن الداخل وبصقر قريش .

والجذور العميقة لهذا الاضطراب في الإدارة الاسلامية في الاندلس في أعقاب فترة الفتح ترجع في الواقع إلى عمليات استقرار الفاتحين الذين كانو يتكاثرون على الأراضي الاسبانية وإلى توضعهم ضمن المجتمع القوطي الاسباني . وهو استقرار لم يتم بسهولة . وقد رافقته خصومات وزحامات كثيرة لابين الغالبين والمغاوبين فقط ولكنها كانت أشد بين الغالبين أنفسهم من عرب وبربر حين لاحظ البربر أن العناصر العربية قد استأثر معظمها بالأراضي الخصبة في حين بقي للبربر المناطق الجبلية والأراضي الأقل خصباً وثمرات . يضاف إلى هذا أن الطبقات الحرفية والتجارية في المدن كانت تعتبر نفسها مضطهدة بسبب ما صارت تدفعه من الضرائب لجماعات كانت تعتبرها محتلة من جهة وكافرة من جهة أخرى . وهذه الطبقات كانت في كثرتها الكاثرة من الاسبان . أما الفاتحون فكانوا طبقة من المحاربين المميزين لم تتحول إلى طبقة مدنية وزراعية إلا بعد حين، وفي الفترة التي أضحت فيها الاندلس إمارة مستقلة .

* * *

من الولاية إلى الخلافة

استمر الوجود العربي في الأندلس حوالي ثمانية قرون . كان خلالها متنوع النظم . ففي نصف القرن الأول كانت ولايةعربيةتابعة لدمشق . ثم أصبحت بعـــد ظهور العباسيين في المشرق إمـــارة مستقلة . مدة تقل قليلاً عن قرنين ، ثم خلافة أموية أيضاً مدةقرن . ثم تمزقت بين الحكام قرابة نصف قرن ، قبل أن يصلها المدد المغربي فيستولي عليها قرناً ونصف القرن . فلما انهار تقلصت أي تقلص،واقتصرت مدة قرنين ونصف القرن على مملكة غرناطة قبل أن تنطفىء فيها الشعلة الأخيرة أواخر القرن التاسع هجري/الخامس عشر للميلاد .

انتقلت الأندلس لتصبح إمارة مستقلة عن الخلافة الاسلامية على يد عبدالرحمن الداخل ولا شك أن لبعدها الجغرافي،ولانشغال العباسيين في المشرق،ولسياستهم الدفاعية التي سنها المنصور،وللفوضى والعصبيات التي كانت فيها آثارها في هذا الاستقلال . فكانت أولى الإمارات انفصالاً عن الخلافة.ويبدو بأن الأمير الأموي لم يجرؤ على اصطناع لقب الخلافة هو ومن أتى بعده حتى مابعد قرنين تقريباً . كما لم يتخذ قراراً بابطال الخطبة للعباسيين نهائياً في الاندلس حتى سنة ١٥٧ / ٧٧٣ قبل وفاة المنصور بسنة واحدة .

وعبد الرحمن هو حفيد الخليفة هشام بن عبد الملك . فر من الشام في مغامرة طويلة حتى وصل الأندلس سنة ١٣٧ / ٧٥٥ معتمداً على أخواله من البربر ، وعلى قيسية الشام،وعلى استمالة اليمانيين . وكان قد مضى على والي الاندلس يوسف عبد الرحمن الفهري حوالي عشر سنوات في الولاية (١٢٨ — ١٣٧ / ٧٤٦ — ٧٥٥). وقد ناوأه اليمانية والبربر وثاروا عليه . واستفـــاد عبد الرحمن من هذا الاضطراب في جمع الأنصار ودخول مدن الأندلس واحدة بعد الأخرى . وبعد أن سار نحو قرطبة وتقدم الفهري نحو اشبيلية نشبت المعركة بين الطرفين (أواخر سنة ١٣٨ / مايو سنة ٧٥٦) على ضفة الوادي الكبير .وانتصر فيها عبد الرحمن . ودخل قرطبة. في حين فر يوسف الفهري هارباً نحو الشمال .

كانت هذه أولى خطوات عبد الرحمن في امتلاك ارض الاندلس. لكنها لم تكن تعني امتلاكه كله. لأن مختلف القوى والطامعين تألبوا عليه فالفهري نشر الفوضى في الشمال.وأعوان العباسيين حاولوا عبثاً الحاق الاندلس بالخلافة الجديدة.والبربر انتقضوا وطالبوا بمثل ما احتكره العرب من الأراضي الخصبة . ولم يكن استخلاص ذلك سهلاً من الملاك الذين شكلوا طبقة ارستقراطية مميزة باعتبارها صاحبة الفتح والدين. كما انتقض على عبدالرحمن بعض انصاره . ومنهم مولاه بدر واليحصبي زعيم اليمانية المؤيدين له. لكنه استطاع أن يخضع أعداءه واحداً بعد الآخر بالدبلوماسية تارةوبالحرب تارةأخرى.وكان أبلغ ردوده ما أجاب به المنصور العباسي الذي بعث بعض أعوانه مع لواء أسود لطرد عبدالرحمن من الاندلس فلم تمض سنتان حتى كان رأس هذا الرجل منثوراً في موسم الحج !...أما أخطر اللحظات فكانت تلك التي هدده فيها ، في الشمال سنة ٧٧٧ حلف جمع بين

صهر الفهري وحاكم برشلونة وشارلمان المشهور ملك الفرنجة الذي قطع جبال البيرية بجيوشه سنة ٧٧٨ ووصل حتى سرقسطة . لكنه اضطر للانسحاب حين طمع بالتوسع على حساب العرب . وكانت الضربات التي وجهها المسلمون والبشكنس (الباسك) إلى مؤخرة جيشه المنسحبة موضوع ملحمة شعرية مشهورة باسم أناشيد رولان ... وفشل التحالف .

لم تمض فترة من الوقت حتى برزت الاندلس إمارة موحدة. جمع عبد الرحمن عناصر شعبها حول شخصه.وأنشأ لها جيشاً اغلبه من البربر أخوال عبد الرحمن . واقام فيها النظام الإداري المركزي الذي تعب عبدالرحمن في تنظيمه . وجعل للعاصمة قرطبة سوراً وشيد لنفسه قصراً قربها . وبنى فيها جامعها الكبير الذي سيتبارى الأمراء والخلفاء من بعده في توسيعه وتزيينه . ولعله كان يفكر في مضاهاة بغداد التي بناها المنصور في تلك الفترة (سنة ١٤٥ — ١٤٨) بهذه العاصمة التي نظم الحياة فيها، وزاد في زروعها بما استجلبه من الشام . وتظهر عبقرية عبدالرحمن في اهتمامه بمختلف نواحي الحياة في الأندلس . وحين توفي سنة ١٧٢ / ٧٨٨ بعد ٣٥ سنة من الحكم عن ٦١ سنة ، كانت كل أسس الإمارة بما في ذلك حياتها الفنية والفكرية والعمرانية والاقتصادية قد وضعت . الشيء الوحيد الذي لم يفلح الداخل في القضاء عليه هو العصبيات ضمن العرب والبربر والمولدين . لقد أخمدها لكنه لم يقض عليها .

توالى على الحكم بعد عبد الرحمن ابنه هشام الأول الذي بقي ثماني سنوات (١٧٢ — ١٨٠ / ٧٨٨ — ٧٩٦) ثم حفيده الأول الحكم الذي حكم ستاً وعشرين سنة (١٨٠ — ٢٠٨ / ٧٩٦ — ٢٢٨). في أثناء ذلك كان قد مضى على الحكم العربي في الاندلس اكثر من قرن وهي

فترة كانت كافية لظهور مجموعات جديدة في المجتمع أضيفت إلى تنوعاته فقد ظهر جيل المولدين في المدن خاصة Moladies وهم المسلمون الجدد من الاسبان وجمهرتهم من الفلاحين أقنان الأرض ومن العبيد المعتقين . ولم يكن اسلام بعض منهم صحيحاً لكن الاسلام كان يحررهم من العبودية . وقد أصبح هؤلاء اكثرية في السكان . وصارت لهم اطماعهم ومصالحهم . كما ظهر جيل المستعربين Los Mozarabes الذين لم يعتنقوا الاسلام . ولكن تألق الحضارة الاسلامية فتنهم فاستعربوا لغة ولباساً وعادات. وصار حديثهم بالعربية مجال تظرف وتميز في حين كانت العناصر المتعصبة تهاجم ذلك فيهم وتستنكره .

وفي الحين الذي لم تخفت فيه حدة العصبيات المتنافرة بين المضريين واليمانيين من العرب وبين البربر ظهرت تحركات المولدين والمستعربين وكان كل هم الأمراء حفظ التوازن والسلام بين مختلف العناصر.لكن ألواناً من الاضطرابات العامة كانت تتوالى نتيجة التباينات الاقتصادية والتضارب في المصالح والأهواء . كانت الفروق فيما بين العناصر المختلفة التي كونت المجتمع الاندلسي تزداد تناقضاً بدل أن تتناقص . وتعمل على ازدياد التفرقة فيه وتباين المصالح وتصادمها بدل الاندماج والتوازي. ولم يكن ذلك غريباً مع الاختلاف الديني بين المسلمين والنصارى والتباينات. المذهبية الاسلامية ،والزحام العنصري بين البربر الذين يعتبرون أن الفتح تم على أيديهم وأن العرب جاؤوا متأخرين وأخذوا المكاسب الأساسية فيه منهم . يضاف إلى ذلك أن توسع العلاقات الاقتصادية بعد الفتح بين شمالي افريقيا والاندلس وانفتاح طريق الذهب من السودان ، عبر المغرب ، إلى الاندلس أوجد طبقات من الاغنياء الواسعي الثروة في المدن

تقابلها طبقـات هامشية ، وبخاصة من المولـدين الحـديثي الاسلام ، والتي كانت تأمل من وراء اسلامها في مستوى اجتماعي أعلى فلم تظفر تماماً بآمالها .

هذه العوامل المختلفة وتعقيداتها خلقت ضمن المجتمع الاندلسي اضطرابات مستمرة حاول الأمراء تجاوزها بالتسامح الديني والعنصري تارة او القضاء عليها بالقوة والبطش تارة أخرى.ولم يفكروا أو يعملوا على دمج المجتمع لغوياً واجتماعياً كما جرى – إلى حد ما – في المشرق فظلت أسبابها كامنة تعمل دون انقطاع على التأجج عند كل فرصة . واستعراض هذه الحركات التي سمتها الكتب التاريخية « بالثورات » قد يطول ولكن أهمها :

١ – (ثورة) الربض : وهي الضاحيـة الجنوبية لقرطبة ومعظم سكانها من المولدين ، جديدي الاسلام الذين كانوا ، بتحريض الفقهاء يريدون تطبيق التعاليم الاسلامية بحذافيرها . وكان الأمير الحكم الأول (١٨٠ – ٢٠٨ / ٧٩٦ – ٨٢٢) لا يراعيها . وكانت هذه الحجة غطاء لفوارق اقتصادية عنيفة زاد فيها فقر الفقراء وزاد غنى الطبقات العليا ولهوها.فبدأ الناس يلوكون سيرة الأمير ويهاجمونه ويأخذون عليه فيما يأخذون اصطناع الحـرس من الزنوج والمرتزقة. وهاجموا موكبه بالحجارة سنة ١٩١ / ٨٠٥ وظلت النقمة تتفاقم حتى انتهت سنة ١٩٩ / ٨١٤ إلى هياج شعبي في الربض بزعامة أحـد فقهاء البربر . وحاصروا قصر الامارة . وأنقذ الحرس الأمير . ثم أحاطوا بالثائرين وفتكوا بهم الفتك الذريع .وأمر الحكم (الذي كسب في التاريخ لقب الحكم الربضي) باجلاء سكان الربض عنه بعد أن صلب ثلاثمائة منهم على مجرى الوادي

الكبير . وكان لهؤلاء المطرودين دورهم في التاريخ فقسم ممن نزل منهم المغرب أسسوا في فاس أحد قسميها وهو عدوة الاندلسيين ووصل قسم منهم إلى الاسكندرية واحتلوها فترة.فلما أجلاهم عنها خرجوا إلى جزيرة كريت واقاموا فيها حكماً اسلامياً استمر قرناً ونصف القرن تقريباً .

٢ — حركة الاستشهاد : وكانت ردة فعل على تزايد اعداد الذين اعتنقوا الاسلام من الاسبان والذيناستعربوا فقد أثار اسقف قرطبة يولوغيوس العواطف الشعبية النصرانية وحرضها على شتم النبي والإسلام لكي يحاكم القضاة المسلمون هؤلاء الشاتمين ويحكموا باعدامهم.ويكون المحكوم في هذه الحال شهيداً . . . ولما قتل (سنة ٢٨٢ / ٨٥٩) زعيم هذه الحركة زاد ذلك من قوتها . على أن هذا التعصب الهستيري وإن مس الكتلة النصر انية على درجات متفاوتة لم يؤد إلى اعدام اكثر من بضعة وأربعين محكوماً .

٣ — ثورات الأمصار والإفراد : لم تكن الفترة التي قضاها الولاة والأمراء في الحكم كافية لدمج العناصر المختلفة بعضهامع بعض في الأندلس رغم الجهود التي بذلها الأمراء الأوائل وبخاصة عبد الرحمن الثاني المعروف بالأوسط (٢٠٨ — ٢٣٨ / ٨٢٢ — ٨٥٢) والذي يعتبر من بناة الوحدة الأموية الاندلسية . فما إن وصل الحكم إلى الأمراء الضعفاء محمد الأول (٢٣٨ — ٢٧٢ / ٨٥٢ — ٨٨٦) ثم ولديه المنذر (ولم يبق سوى سنتين) وعبد الله (٢٧٥ — ٣٠٠ / ٨٨٨ — ٩١٢) الذي انتهى به عهد الأمراء.حتى برزت الفتن الانفصالية وبخاصة في مدن الأطراف وفي طليطلة . كان الضعف قد بدأ منذ عهد عبد الرحمن

الثاني الذي أخذ الفقهاء عليها انقياده لزوجته وللخادمة الخصى وللفقية يحيى بن يحيى الذي نشر بالاستناد إلى نفوذ الأمير مذهب الامام مالك في الاندلس . لكن عهده كان عهد استرخاء وازدهار بسبب نشاط حركة التجارة مع المغرب،وتدفق الذهب السوداني عبر الاندلس إلى الغرب الأوروبي . وكان رمز هذا الاسترخاء الحضاري تألق نجم زرياب المغني المثقف الآتي من المشرق،والذي أضحت أعماله وملابسه وتصرفاته وظرفه « موضة » للناس وللطبقات العليا الناشئة في الاندلس . وقد حظى من عبد الرحمن الثاني بأوفر العناية والاكرام .

كان طبيعياً ، مع التطور الحضاري وازدياد الغنى وضعف الأمراء التالين أن تتحرك النزعات الطائفية التي برزت خاصة لدى المسلمين المستجدين في أطراف الدولة لدرجة تقــارب الانفصال عنها بزعامة حكامها،ومعظمهم من البربر أو المولدين . وهكذا انقطعت عن الدولة مقاطعة رية في الجنوب بعد أن عقدت معاهدة اعطيت الحكم الذاتي سنة ٢٢٢ / ٨٧٣.ثم انقطعت في الشمال مقاطعة الأراغون التي كان يحكمها بتوقسي ذوي الأصل الاسباني. ثم أضافوا إلى إمارتهم سرقسطة وتطيلة وغيرها . واستبد بعد ذلك بنو ذوالنــونبطليطلة وما حولها،وبنولب بالثغر الاعلى،وبنو الحجاج باشبيلية،وعبد الرحمن بن مروان الجليقي في الجنوب الغربي؛ وبجواره أميران آخران.عدا ثائر ثالث في مرسيه وآخرين ظهروا في فترات مختلفة في طرطوشه وبرشلونة ورندة والبيرة وإلبا وجيرونة وسرقسطة ووشقة وماردة وباجة وبطليوس . غير أن أخطر الثورات وأطولها كانت تلك التي قام بها عمرابن حفصون وقامت بها طليطلة .

وكان هذا الرجل من المولدين ويدعي النبالة القوطية. وكان إسلامه ظاهرياً . بدأ قاطع طريق في الجبال سنة ٢٦٦ / ٨٨٠ وحين هزم واستتيب خدم فترة في جيش الامارة ليعود ثانية إلى ثورته بقوة أشد وأوسع حتى أرهب المناطق الجنوبية التي ظهر فيها . وقد عاني الأمراء من محمد إلى عبد الله الكثير في قمع ثورته ، فلم يفلحوا . بل استطاع في فترة من الفترات أن يعزل قرطبة عن الاندلس . وقام بالاتصالات مع الأغالبة في تونس، ومن خلالهم مع العباسيين على أمل منحه إمارة الاندلس وفشل في ذلك . لكنه استمر في ثورته، يهزم تارة وينتصر اخرى. وأخيراً كشف عن نصرانيته سنة ٢٨٦/٨٩٩ وتسمى باسم صمويل ثم هزم. لكنه اعتصم في مدينة بيشتر فظلت في يده حتى مات سنة ٣٠٥ / ٩١٧ وقضي سنة ٣١٥ على آخر أولاده بعد أن شغل معهم الدولة قرابة أربعين سنة وعادت المنطقة التي كان يملكها إلى حوزة قرطبة .

أما طليطلة عاصمة الثغر الأدنى فكانت الجرح الناغر في خاصرة الدولة على الدوام وبؤرة النقمة . لا تكاد تنتهي ثورة فيها حتى تقوم أخرى . ويبدو أنها وهي العاصمة التقليدية أيام القوط للبلاد ، كانت تنظر إلى قرطبة على أنها عاصمة المسلمين . وتنفس عليها انتقال المصالح والنفوذ والقوة إليها ومايتبع ذلك من الثروة والجاه . وتعتبر نفسها مضطهدة في العهد الاسلامي . كما يعتبر أهلها أنفسهم حماة النصرانية القديمة ولو أن الكثيرين منهم قد أسلموا . . . وكانت تستغل حصانة موقعها في محاولاتها الثورية المتعددة وقربها من الممالك النصرانية التي كثيراً ماأعانتها على التمرد. ونستطيع أن نعد لطليطلة ما لا يقل عن ستة تمردات كبيرة خلال فترة الإمارة الأموية انتهت كلها بالفشل . ولعل أقساها

تلك التي انتهت بمؤامرة الحفرة وقتل فيها حوالي سبعمائة من وجهاء المدينة ! ! والمعركة التي كانت في سنة ٢٤٠ / ٨٥٤ وذهبت بحوالي عشرة آلاف قتيل منها ومن مملكة ليون النصرانية التي حالفتها .

وجميع ثورات المدن والأفراد التي قامت مع الردود الشعبية العربية عليها وهي كثيرة ، انما كانت تمثل اتجاهات ومآرب وأطماعاً سياسية مكبوتة وجدت متنفساً لها في هذه الثورات.فهي نتيجة مخاض اقتصادي — اجتماعي لا تحركات فردية أو شخصية .

٤ — ثورات الزحام على السلطة في الأسرة الحاكمة ، ومثل هذه الثورات أطماع يساندها بعض المنتفعين أملاً في ما يعود عليها من وصول صاحبهم إلى الحكم . وهي أمور تجري دوماً وبكل مكان ضمن الأسر الحاكمة.وبصرف النظر عن أحقية الثائر أو الأمير في الملك فان المنتصر فيها دوماً هو القوة . وقد وقع ذلك في الأسرة الأموية بالاندلس.ولعل أهمها ثورة عبد الله وسليمان عمى الحكم بن هشام عليه حين تولى سنة ١٨٠ / ٧٩٦ بعد أن ثارا من قبل على أخيهما هشام الذي تمكن من نفيهما إلى المغرب . وقد استنجد العمان هذه المرة بالفرنج فلم يفدهما ذلك فأسر سليمان في قرطبة سنة ١٨٤ / ٨٠٠ وطلب الثاني الأمان . وقد تدعم بذلك ملك عبد الرحمن بن هشام في السنة التي كان فيها شارلمان ملك الفرنجة يتوج أمبراطوراً على الامبراطورية الرومانية المقدسة .

إن هذا الاستعراض للثورات لا يعني ابداً أنها أوقفت الحياة العامة في الأندلس . وأقصى مافعلته أنها أقلقت الأمراء الحكام وزادت في متاعبهم ونفقاتهم .أما حياة الناس العادية ونشاطهم الاقتصادي والاجتماعي وانتاجهم الفكري فكان يتوسع ويزدهر ويقوى ، ولعل تلك الثورات

كانت ، في العلاقة الجدلية بينها وبين الحياة سبباً ونتيجة معاً للازدهار الاقتصادي الذي شمل الأندلس في فترة الإمارة وما بعدها . وإنما كانت تأتي على هامشها في حين كانت حركة الاقتصاد تغذي الآمال في أصحاب الثورات، كما تمنح القوة للامراء كي يستطيعوا قمعها . وعلى الرغم مما يعزوه المؤرخون للأمراء من صفات يرون أنها تؤثر في تطورات الادارة والسياسة فان هذه الصفات من علم او حنكة او تدين أو لهو أو جهاد لم يكن لها إلا الأثر المحدود في رضى الناس وغضبهم إلا إن اجتمعت معها وأثارتها عوامل ومصالح أخرى قائمة في القاعدة الاجماعيةللناس.

وربما كان من الأدلة على الازدهار الاقتصادي – الاجتماعي الواسع وعلى استبحار العمران والفكر في الأندلس في فترة الإمارة ، وهي الفترة التي منحت الاندلس صورتها الحضارية وأسس تكوينها التي نعرف أن الأمراء تمكنوا على الدوام، رغم كثرة الثوراتالداخلية، من تحمل نفقات الحروب التي قادوها بنجاح كبير .كما تمكنوا في الوقت نفسه من تجنيد الجيوش وسوقها في حملات الغزو للدول النصرانية في الشمال. وفي عمليات الدفاع عن الدولة أيضاً .وكان الجهاد ضد « الكفار » يعطي الشرعية للحكام ويدفع عنهم الألسنة كما يمنحهم سمعة القوة والمنعة . وليس ثم أمير لم يقم بهذا الواجب المقدس فكانت جبهة الشمال والغرب على الدوام كما كانت جبهة البحر المتوسط في الشرق أحياناً مسرحاً مستمراً للحروب بشكليها الهجومي والدفاعي . مابين برشلونة في قطالونية إلى أقصى مملكة جليقية بما في ذلك آراغون وقشتاله وليون وقد تجاوز ذلك ، عبر البيرنة إلى جنوب فرنسا كما وصلت إلى الجزر الشرقية (الباليار) في حوض المتوسط الغربي . وكان

نجاح الأمراء الامويين على مختلف تلك الجبهات نتيجة للمقدرة الاقتصادية التي يتمتعون بها في منطقتهم الواسعة ونشاط حركتي الانتاج والتبادل التجاري بينها وبين المغرب الاسلامي خاصة والغرب الأوروبي . إن قدرتهم على تحمل نفقاتها المستمرة دليل على قوة القاعدة الاقتصادية التي يستندون إليها . وعند الأزمات كما في عهد الأمير محمد وابنيه المنذر وعبد الله أواخر القرن الثالث كانت الدولة كلها تهتز وتهدد بالانهيار . ولم تكن العلاقات العدائية لتمنع عمليات التبادل الاقتصادي بين الأندلس الاسلامية والممالك المجاورة،ولا نشاط العلاقات الثقافية التي كانت تعطي تلك الممالك أكثر بكثير مما تأخذ منها نتيجة الفروق في المستوى الحضاري .

وتعداد تلك الحروب « الجهادية » يطول . لكن أهمها بعد انسحاب شارلمان عبر ممر رونسفال أيام عبد الرحمن الداخل :

١ ــ حملة هشام ابنه سنة ١٧٥ / ٧٩١ على جليقية ونصره على ملكها برمودو الأول ثم تكرار الغزوة سنة ١٧٩ / ٧٩٥ .

٢ ــ وحملة هذا الأمير على جيرونة في جنوب فرنسا عبر البيرنه سنة ١٧٦ / ٧٩٢ ووصول جيشه منتصراً حتى سبتمانية .

٣ ــ حملات الحكم بن هشام سنة ١٨٠ / ٢٠٠ ــ ٧٩٦ــ٨١٦ على إلبا ومنطقة القلاع (قشتالة القديمة) ومملكة اشتورياس .

٤ ــ الاغارة على منطقة القلاع سنة ٢٠٨ / ٨٢٣ وما بعدها حتى اضطر ملك اشتورياس إلى عقد هدنة سنة ٢١٣ / ٨٣٨ دامت عشر سنوات .

٥ — الدفاع ضد هجمات النورماند (الفايكنغ) الذين غزوا سنة ٢٢٩ / ٨٤٤ مرفأ لشبونة في ثمانين مركباً وتوغلوا بسفنهم الرقيقة في عمق الأنهر الاندلسية وفي الوادي الكبير ،حتى هزموا بعد عدة مواقع سنة ٢٣٠ وفروا بعد أن دمروا مدينتي لبلة وباجة . وكان من نتائج هذه الغارة اهتمام عبد الرحمن بن الحكم باعداد قطع الاسطول البحري في غرب المتوسط . ثم اشتبك الاندلسيون مع هؤلاء القراصنة غيرمرة وهزموهمبعد ذلك،وبخاصة في عهد الامير محمد بين سنة ٢٢١—٦٤٤ .

٦ — غزو مدينة برشلونة مرة بعد مرة بين سنتي ٢١٢ — ٢٤١ / ٨٢٧ — ٨٥٨ وإضعافها دون النجاح في احتلالها .

٧ — أسر ملك نافارا في حملات الأمير محمد عليها وعلى قشتاله وأراغون سنة ٢٤٦ / ٨٦٥ وبقاؤه في الأسر عشرين سنة .

٨ — قيام ولاة الشمال الاندلسي بالغارات الدفاعية على ممالك الشمال النصرانية مابين سنتي ٢٨٠ — ٢٩٨ هجرية

٩ — فتح الجزر الشرقية (الباليار) سنة ٢٩٠ / ٩٠٣ على يد القائد عصام الخولاني .

هذه العلاقات العدائية مع دول الشمال النصراني كان يقابلها علاقات فيها نوع من الحياد الحذر مع المغرب وتونس . فبعد أن قطع عبد الرحمن الداخل أمل العباسيين في الاندلس وقطع هرون الرشيد أمله من المغرب بعد قيام دولة الأدارسة فيه وأقامته لدولة الأغالبة في تونس ، استراحت إمارة الاندلس إلى هذا الحاجز من الدول بينها وبين المناطق العباسية فقد كان فيما بين الادارسة والأغالبة عدا بعض الامارات

الصغرى، دولتان خارجيتان هما الرستمية والمدرارية وقد انصرفت هذه الدول إلى العمل التجاري — وإن امتد الأغالبة إلى صقلية لسبب تجاري سياسي، أيضاً — وعمات مرافىء الشمال الأفريقي والأندلس معاً في نقل البضائع التي كان أثمنها الذهب السوداني والعبيد، فاغتنى الشمال الافريقي تدريجياً. وظهر فيه مايزيد على عشرين مدينة ومرفأ كان أبرزها مدينة فاس في المغرب، عدا ماظهر في الأندلس منها. أقصى ماكان يريده أمراء الأندلس، إن لم تتم لهم السيطرة على المغرب وأن تكون العدوة الجنوبية تحت سيطرتهم أو نفوذهم تأميناً لشواطئهم في الجنوب. وأن لاتظهر فيها قوة ضخمة ولا تقوم أساطيل في البحر أقوى منها، وتتحالف بعضها مع بعض ضدها. هذه الاستراتيجية السياسية ظلت متبعة طول عهد الأمراء فكانت الاندلس رغم ارتباطها الديني والفكري والحضاري مع باقي العالم الاسلامي معزولة عنه، منفردة بمصيرها.

وتعطي المصادر بعد هذا وزناً كبيراً لصفات الأمراء من حزم أو كرم أو لهو أو حب الجهاد أو ورع وتنسب إلى هذه الصفات الأميرية المالكية انهيار الدول أو نجاحها. والواقع أنها ذات دور ثانوي في حياة الدول، وليس لها — بسبب وجود المستشارين حولهم — إلا أضعف التأثير في قراراتهم السياسية والعسكرية، أو في قراراتهم العمرانية أو في تطور الحياة الفكرية. فالجوائز التي كانت تمنح إنما كان ينالها بعض الشعراء والمقربين. وفيما عدا ذلك فان توافر الموارد ووجود الحاجات والضرورات الحياتية هي التي كانت تملي على الأمراء مواقفهم العسكرية والدفاعية وأعمالهم العمرانية كتمويل بناء القلاع والأسوار أو تسخير بعض الجماعات لها أو إقامة الجسور فوق الأنهر. كما كان بناء المساجد

وتوسيع جامع قرطبة نتيجة تزايد عدد المسلمين وتكاثرهم مع الأيام . وكان تزيينها نتيجة الوفرة المالية التي تتمتع بها الدولة . ومثل ذلك بناء القصور . وهكذا نفهم بناء جامع قرطبة بأمر من عبد الرحمن الداخل ثم توسعته أيام ابن هشام وتوسعته ثانية أيام حفيده وثالثة بعد ذلك . وإقامة قنطرة قرطبة الشهيرة بأمر هشام نفسه ؛ ثم بناء جامع اشبيلية وسورها الكبير . بعد الغزو النورماندي . وبناء الأسطول وتزيين قرطبة أيام الحكم بن هشام .

ولنلاحظ بعد هذا أن دولة الاندلس مثلها كمثل جميع الدول المعاصرة لها كانت تهتم بأمرين اثنين :

١ — إقامة العدل بين الناس عن طريق النظام القضائي لارتباط ذلك بالأمن الضروري لسير الحياة العامة سيرها الطبيعي .

٢ — القوة المستندة إلى الإمكان الاقتصادي القوي وهي التي كانت تحدد مدى الحاجة إلى الجيش والانفاق عليه سلاحاً وتجنيداً وإعداداً وقلاعاً وأسواراً لضرورات الأمن الداخلي وقمع التمردات وللدفاع الخارجي ضد القوى العدوة . وكان إثبات الهيبة والسمعة للدولة سواء كان ذلك داخلياً أو خارجياً مرتبطاً بتلك القوة .

يبقى أن بعض الأمراء كان يتجنب النفقات الزائدة كمحمد بن عبد الرحمن بسبب فقر الخزينة نتيجة بذخ أبيه لصالح الجواري والصقالبة . أو يترك للحاشية أن تؤثر عليه كبعض سابقيه . وليس من الضروري أن تكون هذه النصائح والتأثيرات سيئة دوماً كما ليس من الضروري أن يكون استبداد الأمير برأيه صحيحاً دوماً . ونتيجة لهذا فان قوة الدولة الاندلسية وضعفها لم يكن يحددها البلاط نفسه بقـــدر

ماتحددها قوة البنية الاقتصادية- الاجتماعية التي تقوم عليها أو ضعفها. ولهذا استطاعت الاندلس أن تمر من عهد الإمارة إلى عهد الخلافة بنجاح كبير ذلك أن ضعف الامراء في إدارتهم المركزيـة لم يكن ينعكس إلا على إدارة الدولة من الناحية السياسية أو على ازدياد نفوذ حكام المدن، وولاة الأطراف، وقلة موارد الأمراء في المركز، وكثرة المنتزين والثائرين في أنحاء الدولة ومطامعهم. وهكذا لم تؤثر كثرتهم في عهد الأمراء الأخيرين رغم اقتسامهم إدارة الإمارة في بيشتر حيث يعتصم ابن حفصون منذ زمن أو في أشبيلية أو جيان أو وادي آش أو طليطلة وبطلبوس وتدمير وبلنسية .

وعبد الرحمن (الناصر) حفيد الأمير عبد الله، بدأ عهده أميراً كغيره سنة ٣٠٠ / ٩١٢ وكان قد مضى على ظهور الفاطميين في تونس والمغرب واتخاذهم لقب الخلافة ثلاث سنوات فقط . وكانت هذه أول مرة يظهر فيها خليفتان في الاسلام . وقد استمر عبد الرحمن على لقب الإمارة حتى أواخر سنة ٣١٦ / ٩٢٩ ثم أمر أن يخطب له على المنابر بلقب الخليفة الناصر لدين الله وبامرة المؤمنين مجاراة للفاطميين وتعبيراً عن النجاح الذي لقيه في ادارة الدولة . ولم يكن لهذا التغيير في اللقب أكثر من المعنى السياسي ومحاولة استغلال ضخامة اللقب الذي ظل لمدة ثلاثة قرون مقترناً باسم الدولة الوحيدة والكبرى في العالم يومذاك . لاسيما بعد ان انحطت هيبتها في المشرق .

جعل عبد الرحمن همه أن يعيد السلطة إلى المركز معتمداً على الجيش. فكانت حملاته أولاً على التمردات الداخلية. وهكذا في حملة استمرت ثلاثة أشهر أحيا سلطته في جيان ووادي آش في السنة الأولى لإمارته

وشجعه ذلك على مهاجمة اشبيلية في السنة التالية وإخضاعها بعد حصار طويل فهدم أسوارها وقضى على تمرد المولدين فيها ثم هزم بين سنتي ٣٠١–٣٠٥ ابن حفصون في عدة معارك ، مع حلفائه النصارى وتخلص منه بالمواقع واسترد منه مقره في مدينة بيشتر سنة ٣٠٥ . وبدا بوضوح أن السلطة المركزية في قرطبة قد استردت عافيتها بعد ضعف . وعادت إليها مواردها للانفاق على الجيش الذي كان يزداد بذلك عدداً وسلاحاً وقوة . ويقوم بالمهام العسكرية التي يكلف بها . ثم توفرت بالتدريج القوى المالية المبعثرة تتجمع بازدياد في خزانة قرطبة لتسمح بالسيطرة على طليطلة وبطليوس وتدمير وبلنسية في حملات موفقة متتالية .

وهكذا استند الناصر بصورة أساسية :

١ – إلى جيش لم يبتكر طريقة تجنيده من المماليك الصقالبة خاصة ومن المرتزقة وغيرهم. ولكنه توسع فيه وأحسن استغلاله . وكان حرسه منه فيما يقولون ٣٧٥٠ جندياً في حين بلغ بجنده النظامي مائة ألف ، وهو في أوجه .

٢ – وإلى موارد بلغت فيما يذكرون ستة ملايين ومائتين وخمسين ألف دينار تقريباً وهو دخل لم تعرفه دولة الأندلس من قبل . وقد يبالغون فيقولون إنه كان في عهد الحكم الثاني خلفه ٤٠ مليون وقد قام هذا الدخل وذلك الجيش على قاعدة عريضة من الموارد التجارية والنشاط الزراعي والحرفي بلغ معها العمران العام في قرطبة وغيرها من المدن درجة كبيرة . ويذكرون أن سكانها بلغوا نصف مليون نسمة وكان فيها ٧٠٠ مسجد بجانب جامعها الواسع و ١١٣ ألف دار و٧٠ خزانة كتب وكانوا يقولون إنها أضحت خمس مدن في

واحدة . وبمنطقتها ١٤٨حصناً ومن حولها ٢٩٤ برجاً للمراقبة . وكان من حولها ٢١ ربضاً (أي ضاحية) وكانت شوارع قرطبة مضاءة فيوقت لم تعرف فيه شوارع لندن أو باريس التنوير العمومي إلا بعد بضعة قرون..

غير أن آهم مانجم عن قوة السلطة المركزية وتزايد سلطانها لم يكن تأمين البلاد فحسب ولكن تضاؤل القوة البارزة في أطراف الدولة والقضاء على طبقة الارستقراطية العربية والبربرية القديمتين في البلاد. لقد استنفذت هذه الطبقة دورها الأول السابق من حكم البلاد،ومن حيازة مواردها بحكم الفتح. فكان معظمها مجرد هياكل سياسية اجتماعية فرغت من وظيفتها،وحلت محلها الدولة المركزية وقد سحب الناصر البساط من تحت أقدامها بسهولة . واختار في نظامه الجدبد الذي برز من خلال أعماله اعتماده على جماعة أخرى يثق بها هي مماليكه الصقالبة بصورة خاصة .وهكذا أقصى عدداً من الزعماء العرب عن المناطق الكبرى ووجه بذلك ضربة شديدة إلى الارستقراطية القديمة لم تستعد بعدها نفوذها إلا بعد حين وعلى نطاق ضيق .

هذه العمليات التي استمرت حوالي خمس وعشرين سنة بصورة أساسية وأعادت سيطرة قرطبة على جميع الأندلس ، كما أعادت إليه السلم ، ووحدت اجزاءه في اطار واحد ، واكبتها في الوقت نفسه أعمال أخرى مكملة لها ومتبادلة التأثير معها أيضاً هي تأمين الجبهات الخارجية .

١ ــ فالجبهة الجنوبية في المغرب والتي كانت تقوم فيها دول محدودة الاطماع بحيث لايمتد طموحها لضم الاندلس،والتي كانت تقوم مواردها الأساسية على التجارة بذهب السودان وعبيده وبعض

معادنه تحولت منذ آخر القرن الثالث إلى « خلافة » طامعة بملك العالم أو على الأقل يعتبر خليفتها نفسه موكلاً بملك العالم وتسمت بالخلافة الفاطمية على اسم ابنة الرسول الأعظم كيداً بالعباسيين الذين ينتسبون إلى العباس عمه وتحدياً للامويين. ولم يكونوا يسلمون بأي زعامة للعالم كله بما فيه العالم الاسلامي إلا لهم، بدأوا يعدون العدة لغزو الأندلس بالدعاة المنظمين والأرصاد عبر العدوة وبالعيون . وعقدوا حلفاً مع ابن حفصون الثائر . وعهدوا إلى كبير من كبراء رجال الفكر الاندلسي هو ابن مسرة الفيلسوف الصوفي أن يقيم الحزب الفاطمي تحت ستار التصوف وينشر المذهب الباطني . وامتد نفوذهم في المغرب حتى حلوا محل دوله . وصار شمال افريقيا كله لهم عدا مرافىء محدودة ومواقع يهددونها. وأدرك عبد الرحمن معنى كل هذه التحركات . فاهتم بالقوة البحرية لامن أجل توسيع قدرة الأندلس التجارية فحسب ومزاحمة الفاطميين عليها في حوض المتوسط الغربي، ولكن من أجل الدفاع الحربي أيضاً . وكانت دار الصناعة لهذا الاسطول في المرية، أهم مرافئه . حتى أضحى أقوى الأساطيل في ذلك العصر . لاينافسه إلا الاسطول الفاطمي . واعتماداً عليه قرر أن أمن الأندلس لايكون إلا بتأمين العدوتين على بحر الزقاق فأمر بحملة قامت ٢١٩ / ٩٢١ على سبتة الموالية لحكم الفاطميين، واستولى على جانب من العدوة الافريقية كانت لمملكة الادارسة وبعض ملوك البربر. ومامن شك في أن مناعة الاندلس في فترة حكم الناصر هي التي أسهمت في دفع الفاطميين إلى الاتجاه نحو المشرق ومحاولة فتح مصر أكثر من مرة في تلك الفترة .

وقد جرت مناوشات عديدة بين الأسطولين وهجمات متبادلة كان أخطرها الهجمة التي قام بها سنة ٢٢٤ / ٩٤٥ الأسطول الفاطمي من صقلية ، لأسباب تجارية سياسية معاً ، على المرية والساحل الاسباني فأجاب الناصر عليها بحملة إنتقامية من سبعين مركباً على شواطىء أفريقيا أضرمت فيها النار وعاثت تخريباً في عدة مرافىء . على أي حال فقد كانت قوى الدولتين الاندلسية والفاطمية متعادلة ونشاطهما البحري التجاري كذلك. وهذا ماجعل تحركات الاندلس ضد الفاطميين في شمال افريقية وفي البحر حذرة ودفاعية في الغالب في حين فضل الفاطميون الاندفاع إلى مصر الأخشيدية .

٢ ـ وأما الجبهة الشمالية فكانت عرضة دون انقطاع لغارات الدول النصرانية الصغيرة على الحدود ليون وقشتالة ونافار والأراغون بسبب ضعف الادارة المركزية في قرطبة، وقلة الاهتمام بتجهيز جيوشها في عهد الأمراء الاخيرين قبل عبد الرحمن . ولم يكن قد مضى على إمارته سنة واحدة حين هاجم آردون الثاني ملك ليون ، على العادة ، أراضي العرب فسبى وغنم دون أن يعترضه معترض. فكان رد عبد الرحمن عليه عنيفاً ومباشراً إذ أرسل قائده أحمد بن أبي عبدة في جيش كثيف هزم جيش ليون في عدة معارك وخرب السور الغربي والحصون. وعاد مثقلاً بالغنائم . كانت هذه أولى الحملات ضد الإمارات النصرانية الشمالية التي حاولت بعد ذلك أكثر من مرة منفردة أو متحالفة مع بعضها النيل من أراضي عبد الرحمن مدفوعة بالحماسة الدينية من جهة وبالرغبة في سلب ونهب الأراضي الغنية من جهة أخرى فكانت تفشل . في حين كانت قوة الاندلس المتزايدة تمكنها من النيل منها حتى تمكن

عبد الرحمن من اجتياح عواصم الدول النصرانية مجتمعة واحدة بعد الأخرى : بامبلونة عاصمة نافارا وسمورة عاصمة ليون وبرغش Bnr8os عاصمة قشتالة . حتى طلبت هذه الدول الخلاص بالصلح . ولم يكن هم عبد الرحمن الغاء وجودها، ولكن ارهابها والخلاص من تهديدها . يظهر ذلك إثر الهزيمتين اللتين مني بهما الأولى في معركة شنت اشتبان سنة ٣٠٥ / ٩١٧ في أوائل عهده منتهزين فترة إخماد الثورات الداخلية وقد أجاب عليها بمحو هذه القلعة من الوجود سنة ٣٠٨ ﻫ/ ٩٢٠ مع بعض القلاع الأخرى. وهزيمة ارذنة الثاني (الأكبر) ملك نافارا وجيوش شانغه صاحب قشتالة مجتمعة أشنع هزيمة . والثاني في معركة الخندق سنة ٩٣٩/٣٢٧ فوالى عبد الرحمن المعارك بعدها حتى هزم الهزيمة الأخيرة كل تحالف ضده . واستراحت الجبهة حين نشبت الخلافات بين أعضائها من القوات النصرانية .

في النصف الثاني من عهد الناصر أضحت الاندلس دولة قوية بمواردها، وبالوحدة التي شملت أقاليمها وبأسها الذي تتمتع به وبالهيبة التي وقعت لها في قلوب الممالك المجاورة والبعيدة . ومن الانصاف أن نذكر أن هذه المكانة التي وصلت إليها دولة الأندلس لم تكن من عمل الناصر وحده، ولكنها استمرار للأعمال التي بدأ بها جده عبد الله من قبل ضد المولدين والبربر والنصارى. كما أنها نتيجة النشاط الاقتصادي الواسع الذي استفاد من مجموع هذه التحركات والأعمال من جهة.وساندها بالمقابل من جهة أخرى.كما كان نتيجة وسبباً في الاسهام الفكري الذي ازدهر في قرطبة وغيرها من مدن الأندلس في تلك الفترة . كل نواحي الحياة فيها كانت في حالة ازدهار في وقت استكملت إمارة قرطبة فترة الأوج هذه في تطورها بأمرين :

الأول : هو العمران الداخلي المعبر عن توافر الغنى في الدولة . وقد تمثل ذلك في انشاء عدد من القصور الرائعة التي استدعي لبنائها أبرز المهندسين والفنانين من مختلف انحاء العالم المعروفة وإقامة عدد من المتنزهات التي جرت إليها المياه من الجبال المجاورة . غير أن العمل العمراني الاساسي إنما كان تشييد مدينة الزهراء على إحدى الهضاب شمال قرية قرطبة على خمسة أميال منها . هذه المدينة الملكية بدأ العمل فيها في منتصف عهد الناصر سنة ٣٢٥ / ٩٣٦ ولم ينته حتى مابعد وفاته . وهي عبارة عن قصور ملكية للناصر وحاشيته بالغ في هندستها وترخيمها وحدائقها حتى أضحت أفخم بلاطات أوروبا . وجعل فيها ٤٠٠ غرفة ومقصورة يسكنها الألوف من العبيد والحرس . واجتلب لها السواري والأحواض والتماثيل المذهبة وعمل فيها عشرة آلاف صانع مدة تزيد على عشر سنوات حتى سكنها وجعل لها سوراً بسبعة أبواب من الحديد . واتصل البناء بينها وبين قرطبة بسرعة حتى أضحت ضاحية ملكية تشرف على الوادي الكبير ثم زاد اثنان من خلفاء الناصر بعده في بنائها وتزيينها فصارت واحدة من المدن الكبرى كبغداد والقطسطنطينة . ووصفتها راهبة سكسونية بأنها « جوهرة الناصر » .

الثاني : هو المكانة الدولية فقد حظيت الاندلس باحترام الدول الأوروبية والاسلامية على السواء وإذا لم تتبادل السفارات والهدايا مع الخلافة العباسية أو الفاطمية بسبب المنافسة السياسية، فقد عقدت العلاقات الدبلوماسية مع بيزنطة وغيرها من الدول الأوروبية . ووفدت سفارات هذه الدول عليها : إذ أرسل قسطنطين الرابع امبراطور البيزنطيين سفارته سنة ٣٣٦ / ٩٤٧ تحمل الهدايا ورافقتها في العودة سفارة الناصر

إليه . وجاء قرطبة سفارة من بطرس ملك الصقالبة ولويس الرابع ملك فرنسا وأوتو الأكبر امبراطور ألمانيا هذا إلى سفارات الدول النصرانية في الشمال الاسباني من ليون ونافارا وقشتالة وغيرها بل جاء بعض هذه الدول يطلب المعونة أو الوساطة أو الاستشفاء أو المغنين والمهندسين والخياطـين .

حين مات الناصر سنة ٣٥٠ عن ثلاث وسبعين سنة كان يحكم مملكة تمتد من مصب نهر الابرو الى المحيط الأطلسي ومن سفوح جبال البيرنة إلى جبل طارق . وقد ترك في خزانته ٥ ملايين دينار عدا العقار والثياب والمجوهرات والسلاح . مات « مرتوياً من الأيام » ومع ذلك يروون أنه كان يقول في أواخر أيامه أن الدنيا لم تصف له سوى أربعة عشر يومـاً !

يعتبر القرن الرابع الهجري الذي بدأ بعهد عبد الرحمن الناصر قرن الاندلس العظيم وهو الذي صنع الكثير من مجدها السياسي والفكري . وكان عهد الأميرين التاليين للناصر تتمة لعهده على نحو ما . والخط البياني للأندلس في أيامهما كان استمراراً له في عهد الناصر وإن يكن أحدهما هو ابنه الحكم الثاني الذي تلقب بالمستنصر . (٣٥٠ — ٣٦٦/ ٩٦١ ـ ٩٧٦) أما الآخر فأمير مغتصب للسلطة هو محمد بن أبي عامر المعافري وقد كسب الحكم سمعته الداخلية لامن السلم والاستقرار اللذين وطدهما أبوه فاستمرت الآلة الاقتصادية على نشاطها في عهده. ولكن من إطراء رجال العلم والأدب له لأنه كان يحب المطالعة والقراءة، ويولي العلماء بعطفه وجوائزه؛ ويهتم بجمع الكتب من كل مكان ونسخها وينفق عليها . ويقولون إن مكتبته بلغت ٤٠٠ ألف مجلد للدلالة على

عنايته بالعلم ، وأن له تعليقات على مايقرأ منها. فهو أشبه الخلفاء بالمأمون. وفيما عدا ذلك فقد تابع أباه :

١ — في العمران فأتم قصر الزهراء وزاد في مساحة جامع قرطبة بمقدار مساحته الأصلية وجعل له قبة فخمة وأمر بتزيينه بالفسيفساء المجلوبة . وببناء دار للصدقة بجانب المسجد وأخرى للوعاظ وللعاملين فيه.

٢ — في المحافظة على هيبة الدولة . فقد حاولت دول الشمال النصرانية التحرش بالأراضي العربية فقمعها،لأن الجيش كان مايزال على قوته وتنظيمه والانفاق عليه . وهكذا اضطر الحكم لمحاربة ملك ليون سانشو الأول لأنه نكث بعهوده ، ومحاربة صاحب قشتالة الكونت كوتزالث ، ومملكة نافارا ، واستولى على عدد من مدنها . في حين كان بعضهم يلجأ إلى قرطبة طالباً المعونة على أخصامه . أو يرسل الوفود والسفارات مرضاة لها . فكانت قرطبة مركز الحركة السياسية في الجزيرة الايبيرية كلها .

وقد حاولت الشعوب النورمانية (الفايكنغ) غزو الاراضي الاندلسية سنة ٩٦٦/٣٥٥ جاؤوا في ٢٨ مركباً فنزلوا جنوبي مدينة لشبونة فقاتلهم الجيش والناس في معارك عديدة . كما تصدى لهم الاسطول حتى ارتدوا إلى الشمال . لكنهم لبثوا يحومون حول الشواطىء حتى هاجموها كرة أخرى سنة ٣٦٠ / ٩٧١ فخرج لهم الاسطول العربي وأجبرهم على التواري .

٣ — في سياسته بالمغرب : فقد هدد التوسع الفواطمي ممتلكات الاندلس وراء العدوة في تلك الفترة . ووصل جوهر الصقلي مثبتاً

نفوذ خليفته المعز لدين الله هناك . ثم جاء بلكين بن زيري الصنهاجي فهزم زناته سنة ٣٦١/٩٧٢ ثأراً لأبيه المقتول . فرأى أمير الادارسة الحسن بن كنون مسايرة الفاطميين والخطبة لهم . وكان ذلك تحدياً لسلطة الحكم الثاني في المنطقة لاسيما حين هزم ابن كنون جيشه الذي أرسله لرده إلى الطاعة فأرسل الحكم جيشاً آخر دخل قلعة ابن كنون الحصينة حجر النسر وأرساله أبوه إلى قرطبة فعفا عنه الحكم . وأجرى عليه وعلى حاشيته بعض الأرزاق وانتهت الدولة الأدريسية بعد ذلك بقليل عقب محاولة فاشلة لاحيائها .

عاد المغرب كله لدولة الأندلس . ولنلاحظ أن حماسة الحكم في رد فعله ضدهم لم تكن بدافع الأمن والنفوذ فحسب فلم يكن ثمة خطر منهم،ولكن الخطوط التجارية المتصلة بما وراء الصحراء كانت أكثر من ضرورية لغنى المدن الاندلسية ونشاطها الاقتصادي . كما أن التجار كانوا المصدر الأهم لموارد الدولة .

حين توفي الحكم كان ابنه هشام الثاني الملقب بالمؤيد (٣٦٦- ٩٧٦ - ١٠٠٩) في الثانية عشرة من العمر فتولت أمه صبح - وهي بشكنسية الأصل الوصاية عليه . وعن طريقها وبرعايتها تسلل إلى دست الحكم مغامر عربي الأصل هو محمد بن أبي عامر المعافري اليماني . وهو من أسرة علم ووجاهة وقد بدأ حياته في قرطبة يطلب العلم . وكان يعتاش من كتابة الرسائل . ثم تمرس بالوظائف أيام الحكم . فتولى الاشراف على الخزانة العامة ودار السكة وتولى قضاء اشبيلية ولبلة ومديريةالشرطة. وكان حين مات الحكم أحد أثنين من كبار رجال الدولة ، فعين وزيراً . فكان لايعلوه إلا الحاجب المصحفي . لكنه استطاع بالدهاء والسياسة

تارة وبالهدايا والتآمر تارة أخرى أن يزيحه في زمن قليل ويسجنه، وأن يصبح الرجل الأول والوحيد في الدولة .

وكان رمز استبداده بالسلطة أنه هجر الزهراء خشية المؤامرة عليه وابتنى لنفسه سنة ٣٦٨ في ظاهر قرطبة قصراً — مدينة سماهاالزهراء يمضي منه الاحكام ويصدر الأوامر . في حين كان الخليفة الحدث يعتاد اللهو ويعزل أكثر فأكثر عن أي مهمة . تحت رقابة أمه الوصية عليه وابن أبي عامر معاً .وقانون ملء الفراغ سمح لابن أبي عامر أن يكون الخليفة غير المسمى ، لكن أعماله وطموحاته أهلته أيضاً لملء المنصب ولقبول الناس به .

١ — كان أول ماشغل ابن أبي عامر قضية الجيش. فقدكان للمماليك الصقالبة فيه المركز القوي بجانب التكوينات القبلية من عربية وبربرية. فألغى نظامه التقليدي القديم . ونكل في الوقت نفسه بالصقالبة . واعتاض بالطرفين مرتزقة جندهم من المغرب . ليكون ولاؤهم كاملاً له . ونظمهم كتائب وأقام لهم نظام المرتبات بدل الاقطاع العسكري واستكثر حتى ضاقت بهم قرطبة وأرباضها . ، وبهذا الجيش المأجور قام بالخطوة الثانية التي حاول بها أن يكسب شرعية الحكم وهي :

٢ — غزو الدول النصرانية في الشمال . ولقد أكثر من هذه الغزوات . حتى أحصوا له خمسين غزوة خلال عهده الذي امتد ستاً وعشرين سنة (بمعدل غزوتين كل سنة) ولم يهزم جيشه .الذي كان يقوده بنفسه أحياناً كثيرة في أي غزوة منها . كان يخرج في الربيع والخريف كل سنة إلى نواحي ممالك ليون وقشتالة وقطلونية للجهاد . ومن معاركه الكبيرة فتح سمورة سنة ٩٨١/٢٧١ واحتلال برشلونة

صيف سنة ٩٨٥/٣٧٥ وتدمير ليون وهدم أسوارها الضخمة والحاقها بدولته وقد وصل بحملاته المضائق الجبلية في جليقية وخرب سنة ٣٨٧/ ٩٩٧ كنيسة شنت يعقوب وكان مزاراً للناس من أنحاء أوروبا ، دون أن يهدم القبر . وهكذا كان ابن أبي عامر يستحق لقبه الذي اتخذه مبكراً سنة ٣٧١ / آخر سنة ٩٨١ إثر الصائفة التي انتصر بها ذلك العام ... فصار يدعى بالحاجب المنصور سواء في مكاتباته الرسمية أم لدى الناس أم في التاريخ . وامتد نفوذه إلى أعماق الممالك النصرانية التي دفعت له الجزية رهبة . ولم يتخذ لقب الخلافة لأن مدة ٣٥٠ سنة كانت كافية لتوطيد البيت الأموي وشرعيته لدى الناس . وحرمته كالبيت العباسي .

٣ — على أنه قبل أن يموت باحدى عشرة سنة أراد أن يقلد البويهيين في المشرق . ويجعل بيته موازياً لبيت الخلافة بالوراثة . فرشح ولده عبدالملك لمنصب الحجابة التي كان يليها هو نفسه . وتعادل رئاسة الوزراء . ونجح في ذلك . على الرغم من أن ابنه كان لا يجاوز الثامنة عشرة من العمر . فأخذ العهــد له بها سنة ٩٩١/٣٨١ وعهــد بالوزارة إلى ابنه الثاني عبد الرحمن .

٤ — لم تكن غزوات « الجهاد » هي الأمر الوحيد الذي لجأ إليه ابن أبي عامر لكسب « الشرعية » في رئاسة الدولة ولكنه أضاف إلى ذلك أمرين :

الأول : تملق العلماء والفقهاء . وقد كان هؤلاء قد أصبحوا طبقة اجتماعية واضحة ومؤثرة في المجتمع الأندلسي تماماً كما كانوا في بغداد أو القاهرة . وكانوا أشبه بالحزب السياسي الديني نتيجة الضغط النصراني الشمالي من جهة وكون معظمهم يعيش على حساب الطبقات

الثرية وأحباسها منجهة أخرى . ولهم تأثيرهم القوي في الجماهير العامة باعتبارهم درع الدفاع عن الدين . وكان المذهب المالكي الشائع يساعدهم على ذلك . وقد حرص ابن أبي عامر على كسبهم والبر بهم.و وصل درجة إحراق كتب الفلسفة في مكتبة الحكم وما شابهها مما كان علماء الدين يستنكرونه ليكونوا في جانبه ويكفوا ألسنتهم عنه . ونجح إلى حد كبير في ذلك .

الثاني : اعتماده أجهزة الدعاية . وعلى رأس هذه الأجهزة يأتي الشعراء وخطباء المنابر . وقد استمالهم وأوسع لهم في الأعطيات فكانوا الألسنة الناطقة بشكره ومديحه .

وهكذا لم تستطع صبح الوصية ولا ابنها الضعيف هشام أن يفعلا شيئاً لابن أبي عامر . وجدا نفسيهما خارج الحكم تماماً . وتآمرت صبح لاسترداد نفوذها ففشلت . وتوارت تماماً من التاريخ في حين كان المنصور الحاجب يأمر بأن يخطب له على المنابر وبأن يضرب اسمه على النقود وأن تصدر الكتب باسمه دون الخليفة بعد سنة ٣٨٢ / ٩٩٢ .

كان ابن أبي عامر يتمنى ألا يموت إلا في ميدان الجهاد . وقد نال أمنيته الأخيرة هذه كما نال من قبل كل ماتمناه في الحياة . توفي وهو عائد من غزو قشتالة سنة ٣٩٢ / ١٠٠٢ في مدينة سالم ودفن فيها . ويذكرون أن غبار ثيابه في الحملات دفن في وعاء معه كما أوصى ، مقلداً في ذلك سيف الدولة الذي جعلوا غبار ثيابه لبنته تحت رأسه قبل حوالي أربعين سنة .

لم يكن في استطاعة الخليفة هشام، مع ضعفه ، أن يسترد سلطته بعد موت الحاجب المنصور . فقد كانت دعاية خمس وعشرين سنة وجهادها

وتألقها كافية لكي يرضى الناس بالبيت العامري. وتفاءلوا خيراً حين وجدوا عبدالملك بن المنصور يسقط عنهم بعض الضرائب وينتصر في غزوته الأولى ضد الشمال النصراني ويتلقب بالمظفر . فكأن شمائل أبيه لم تغب في الحزم والتواضع وحسن التدبير والشجاعة لاسيما وأنه قاد سبع غزوات ، معظمها نحو أراضي قشتالة ولم يهزم في أي منها . وتوالت خلال ذلك سفارات الملوك إلى قرطبة وكان أهمها سفارة الامبراطور باسيل الثاني صاحب بيزنطة .

وهكذا استمرت الاندلس، رغم تنوع الحكام في القرن الرابع الهجري كله، على تألقها وقوتها كدولة أوسطية لأن القاعدة الاقتصادية التي كانت تستند إليها لم تختلف . وكانت تمكنها من ذلك. كما أن حركة الانتاج ظلت واسعة فيها ونشاط التجارة عبر مرافئها نحو المغرب ونحو أوروبا تحت سيطرتها الكاملة. فكانت واحدة من الدول الخمس المعدودة في العالم . وهي الخلافتان العباسية في بغداد والفاطمية التي انتقلت إلى مصر سنة ٣٥٨ وأسست مدينة القاهرة، وخفت إلى حد كبير مزاحمتها للأندلس على تجارة الحوض الغربي للمتوسط وعلى تهديد المغرب . ثم الامبراطورية البيزنطية عدوة هاتين الخلافتين معاً في القسطنطينية والمملكة الفرنجية في غربي أوروبا . ولم تختلف سياسة الأندلس ضمن هذا الوضع الخماسي فكان تعاطفها مع الامبراطورية البيزنطية واضحاً وعلاقاتها التجارية واشجة مع بيزنطة . وقد استقدمت منها الفسيفساء لمبانيها والكتب عدا التجارت والوفود والسفارات والسبب واضح لأن الأندلس كانت تشترك مع بيزنطة في خصوماتها لكل من العباسيين والفاطميين ودولة الفرنجة . وكان التوازن الدولي حول البحر المتوسط قائماً على هذا

الأساس عدة قرون . كان رباعياً بين أربع دول كبرى أساسية قبل القرن الرابع . يقف فيه الطرفان عامة ضد الوسطين . ويتحدث المؤرخون عن علاقات طيبة كانت تقوم بين الاندلس وبيزنطة كما يتحدثون على علاقات من مثلها بين العباسيين والفرنجة ثم صار هذا التوازن خماسياً بظهور الفاطميين في تونس سنة ٢٩٧ ثم انتقالهم إلى مصر سنة ٣٥٨ وتحولهم إلى دولة كبرى مؤثرة في سياسة البحر المتوسط .

توفي عبد الملك في حياة الخليفة هشام بعد حكم قصير دام ست سنوات فقط وبضعة أشهر. وختم بموته سنة ٣٩٩/ ١٠٠٨ القرن الذهبي للاندلس. ثم أعقبه ٤٠٠/ ١٠٠٩ موت هشام أو ما زعم أن موته ليسدل الستار على قرن التألق كله .

هذه المرحلة من تاريخ الاندلس التي دامت اكثر قليلاً من قرنين ونصف القرن وضعت عملياً جميع الأسس السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية لهذا التاريخ . ومنحت الاندلس لونها الاسلامي الخاص التي ظلت تعرف به إلى اليوم، والذي قد يذكر بكثير من الرومانتيكية والشعر والخيال . ويمكن أن نسميها كلها مرحلة التأسيس سواء في النظام الحكومي والمالي أو الفاعلية الاقتصادية أو الحركة الثقافية والفكرية . ولم تخل هذه المرحلة من أزمات عاصفة سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي ولكنها تجاوزتها نتيجة لعوامل عديدة .

فمن الأزمات السياسية : تلك التي سبقت استيلاء عبد الرحمن الداخل على الأندلس فقد كانت فترة الولاية غير مستقرة وإن صاحبتها الفتوح وقد انتهت بعهد من الاضطراب الداخلي قاسى عبد الرحمن فيه الكثير

قبل أن يستقر له الأمر وتجتمع بيده الدولة . ومن المرجح أنها اولاه ولولا نسبه الأموي واضطهاد العباسيين للأمويين، لكانت الأندلس قد خرجت من أيدي الفاتحين فلم تكن أسبابها الاقتصادية وعلاقاتها قد ارتبطت بعقد وثيق الارتباط مع الشمال الافريقي الذي سبقها إلى الاسلام . ولا كان هو نفسه مستقراً ليمنح الفاتحين في الاندلس إمكان الاستقرار ويكون له وزنه في إقامته . ومن الأزمات السياسية أيضاً تلك التي نشبت ضد هشام بن عبد الرحمن بثورة أخويه سليمان وعبد الله عليه ثم ثورتهما ضد ابنه الحكم فقد هزت ثورتهما النظام العام بالتسلسل الوراثي، وإن لم ينجحا في ذلك . ومنها ثورة الربض وهي في ظاهرها ثورة دينية وفي أعماقها ثورة طبقية اقتصادية انتهت سنة ٢١٥ بكارثة . ومنها ثورة ابن حفصون التي كادت تودي بالحكم الأموي كله في بعض الفترات التي حاصر فيها قرطبة . وقد تطاولت فلم تخمد حتى مات سنة ٣٠٥ وكانت في جذورها شعور المولدين بالظلم الاقتصادي قياساً بالمكاسب العربية . وأتت بعدها الأزمة التي عاناها الأمير عبد الله بن محمد سواء من تآمر المولدين والنصارى على قرطبة، أو من جراء بروز البربر وأطماعهم على مسرح الاندلس السياسي . وأنقذ عبد الله الدولة من الانهيار .

وقد كانت الأزمات الاقتصادية أشد عنفاً وقسوة فلم تكن مسيرة الدولة كلها مسيرة تقدم وازدهار انتاجي. وقد هزتها عدة أزمات كان بعضها يطول أو يقصر ، أو يشتد أو يقل شدة . وأقساها كانت تلك الأزمة الكبيرة التي وقعت منذ السنوات الأخيرة لحكم الأمير محمد الأول حوالي سنة ٢٧٠ وامتدت حتى عهد عبد الرحمن الناصر أوائل القرن الرابع وقد حدثت في هـــذه الفترة مجاعات شديدة وجفاف مكرور في الموارد الزراعية كادت تقضي على عدد كبير من السكان الفقراء .

واضطر الناس في بعض الأوقات إلى أكل الحيوانات الهائمة كالقطط والكلاب . كما لجأوا إلى مذابح البقر يأكلون دم الحيوانات الذبيحة فيها . وقد تكررت هذه الأزمة بعد قرن وربع القرن (في الربع الثاني من القرن الخامس) وكان لها أثرها في قيام ملوك الطوائف . تماماً كما كان للأزمة الأولى أثرها في اهتزاز الحكم الاموي، قبل أن ينقذه تحسن الأحوال الاقتصادية بعد مجيء عبد الرحمن الناصر .

كانت الأزمات الاقتصادية تصيب المناطق الشمالية من الأندلس اكثر من غيرها . لأنها مناطق جبلية قليلة الخصب وقليلة السكان . فالتوزع السكاني الذي كان يشمل في الاندلس كلها خمسة ملايين نسمة تقريباً كان يتركز جله في المناطق الجنوبية الخصبة مما كان ينقص الأيدي العاملة في الشمال . ويقلل من إمكان الاصلاح الزراعي واستغلال الأرض على الوجه الأكمل . فكان الكثير منها دون استغلال . ويمكن أن نضيف إلى أسباب الأزمات الاقتصادية السلوك المالي لبعض الولاة مع المركز . فقد كان هؤلاء يحتجزون أموال الضرائب ولا يرسلونها إلى الادارة المركزية إلا بعد التأخير والتهديد وأحياناً باستخدام القوة . مما كان يضعف هذه الادارة ويمنعها من تنفيذ مشاريعها العامة في الأمن وفي الدفاع ويتسبب في اختلال موازنتها بصرف النظر عن سوء استخدام هذه الموازنة من قبل بعض الأمراء . وهكذا لم يكن الخط البياني لدولة الأندلس يمشي صعداً في القرون الأولى التأسيسية من حياتها وكان متذبذباً بين صعود وهبوط . ولكن مسراه العام كان يتجه نحو الازدهار والصعود الذي بلغ أوجه في القرن الرابع في عهد كل من الناصر والمنصور . مع العلم بأن فترة الاوج نفسها كانت تحمل في ثناياها عوامل انهيار الدولة ، على الطريقة الجدلية .فالنفقات التي كانت تنفق سواء للأمن الخارجي

أم للأعمال العمرانية أرهقت خزينة الدولة. ومع أنها أعطتها مظاهر العظمة والقوة إلا أنها أضعفت أو أضاعت مواردها وقد ظهر ذلك جلياً في الفترة التالية منذ مطالع القرن الخامس .

والحكومة هي التي تحتكر كما في كل الدول ضرب النقود . وكان غناها بالذهب المحلي والمستورد قد جعل الدينار الذهبي أساس التعامل . كما كان ثم دراهم فضية . وفلوس نحاسية . ودار الضرب في قرطبة هي التي كانت تقوم عليها . وقد انتشرت نقودها في الشمال النصراني لأنه لم يكن يضرب النقود .

وليست لدينا أرقام محدودة تتعلق بميزانية الدولة في الاندلس أو بمقدار ما كان يدفعه ملتزمو الضرائب عن مناطقها وما يدفعه الولاة للمركز . والنتف المبعثرة لاتعطي فكرة واضحة عن ذلك كله . ولا تقدم بالطبع شيئاً ذا غناء عن تطور أو زيادة أو نقص هذه الأموال خلال فترة استمرت اكثر من ٢٥٠ سنة . ونستطيع القول بصورة عامة أن دخل الدولة الأساسي كان من الخراج الزراعي ومما تدره ضرائب الصادرات والواردات التجارية من المال . وأرقام هذه الدخول هي التي تصنع دون الضرائب الأخرى العديدة والمتنوعة ميزانية الدولة . ويذكرون ، في عهد الخليفة الناصر وهو أزهى العصور أن دخل خزانة الخليفة كان يقارب ستة ملايين وربع المليون من الدنانير . وأن ثلث هذا الرقم كان كله لنفقات الجيش . وثلثه الثاني كان يخصص للمشاريع العامة والعمران . ويبقى الثلث الآخر احتياطياً في الخزانة. وعلى الرغم من أن الرقم اعتباطي والتقسيم له نظري بحت إلا أنه يسمح بأخذ فكرة تقديرية عن موارد الاندلس في أوجها . لكنه على أي حال لم يكن يعادل موارد الدولة

العباسية من سواد العراق وحده والبالغة تسعين مليون درهم (٧ ملايين دينار) تقريباً .

وكان دخل الدولة يجيء كما في المشرق عن طريق الالتزام فكان لولاة الكور أن يؤدوه بعد حسم نفقاتهم ، إلى المركز في العاصمة . ومن هنا كان ضعف المركز يسمح لهم باحتجان ما يريدون منه . فتنقص واردات قرطبة ، وتعجز عن تسديد النفقات للدولة وبخاصة للجيش مع النفقات الحربية . وقد تعجز نتيجة التبذير كما جرى أيام الأمير محمد نتيجة تبذير أبيه . فقد عني باصلاح المشكلة المالية فغالى في الشح إلى حد التفريط بشؤون الدفاع العسكري عن إمارته . وكثيراً ما وجد نفسه في نزاعه مع نبرة وأشتوريس في مأزق حرج . كما أنهكته الثورات التي كانت عليه في أراغون (حيث ثار موسى المولد) ، وفي بطليموس (حيث ثار عبد الرحمن ابن مروان بمساندة ملك اشتوريس) ، وفي الجنوب حيث ثار ابن حفصون ثورة طويلة . وأمكنه رغم ذلك وبالتقتير أن يوسع جامع قرطبة وأن يزيد في القصر الخلافي . وكان نظام البريد بدوابه ومحطاته ورجاله هو الذي يؤمن الاتصالات الداخلية في الدولة، كما في المشرق . وهو حكومي فقط للشؤون الرسمية .

والدولة التي أقامها عبد الرحمن الداخل في الاندلس كانت نسخة مصغرة عن الخلافة في المشرق وإن سميت بالامارة . ولكن الممارسة العملية للحكم أوجدت بينها وبين حكم المشرق بعض الفروق القليلة. فالإمارة وراثية كما كانت عليه الخلافتان الأموية والعباسية وإن كان الخاصة والقواد في فترات الضعف يملكون التأثير لمبايعة فرد دون آخر من آل البيت الأموي المجمع على بقائه . وكان للحاجب المركز الأول

في البلاط وبالتالي في البلاد باعتباره القائم على باب الأمير تماماً كما كان للحاجب في الخلافة الأموية . فهو بمثابة رئيس للوزراء وكما استعان بنو العباس على إدارة الدولة بوزراء يساعدونهم — والوزير في الأصل هو المساعد والمعين — كذلك استعان أمويو الأندلس . غير أنهم اتخذوا اكثر من وزير في وقت واحد ، وإن لم يتخصص هؤلاء الوزراء بعمل معين . وكان لكل منهم كتاب يشكلون الديوان مع الوزراء . وقد قسمت الأندلس ، عدا قرطبة ، إلى ستة كور أو أجناس (تماماً كما كان الأمر في الشام أيام بني أمية) ولكل جند أو كورة أمير يسمى الوالي ، وله الصفة المدنية والحربية معاً . والمدينة في الاندلس (كالأجناد أو الكور) قسم إداري له زمام (أي منطقة تحيط به) فيها مدن وقرى وحقول — وكانت البقاع المحيطة بالعاصمة تسمى مدينة . ومن الكور بلنسية واشبيلية وغيرها ، وفي كل كورة عدد من المدن والقرى والحصون. ومن المدن قرطبة وما حولها . وكانت مدن الحدود كوراً عسكرية مثل تطيلة ، ويتبعها عدة مدن وحصون . وبديهي أن الكور الحدودية الشمالية كانت تتوسع — كما في عهد الناصر والحاجب المنصور — وتنقبض تبعاً لتموجات الغزو ونتائجه ، فلم تكن الحدود هناك بالثابتة .

أما الجهاز القضائي فكان الأمير يفوضه إلى القضاة . وأما العاصمة فكانت مقر القاضي الأول الذي يدعى ، منذ القرن الثالث بقاضي القضاة كما في بغداد . أما القضايا الصغيرة المحدودة فيقوم بها صاحب الشرطة وله مكانته في العاصمة . ولكل مدينة شرطتها وسجونها . والقانون المطبق هو الشريعة الاسلامية . وللأمير النظر في المظالم . وكان يفوض بها قاضي القضاة . وكان للأسواق مراقبوها الخاصون وهم

المحتسبون ولهم سلطات واسعة ومكانة تفوق ما كان لهم في المشرق . وتشمل وظائفهم – وهي تعتبر وظائف دينية – جميع ما يتعلق بالأسواق من بيع وشراء وغش ونظافة كما تشمل فصل الخصومات الصغيرة وقضايا التطفيف في المكاييل والموازين وتجاوزات البناء ورقابة الاحتكار ومراقبةالحرف وكتاتيب الصبيانوالامور الاخلاقيةسواءفي التصرف أو في الملبس . فهو « صاحب السوق » واميرها والسبب في قوة المحتسب في الأندلس والمغرب هو اعتناقهم المذهب المالكي الذي يتشدد في كل ما يتعلق بالمعاملات العامة .

استند ازدهار الأندلس في فترة التأسيس إلى ثلاثة أمور :

١ – حسن الاستغلال الزراعي . فعلى الرغم من توزيع الأراضي بين الفاتحين إلا إنهم أبقوا على مزارعيها تماماً كما في المشرق مقابل نسبة معينة من المحصول يأخذهاالمالك ويدفع منها الخراج للدولة.واهتم الفاتحون العرب بزيادة الانتاج ليكثر دخلهم وبتنويعه بادخال الزراعات الشامية . بخاصة عليه.فنقلوا إلى الأندلس أساليب الزراعة الشامية.وحملوا إليها الغروس كالبرقوق (المشمش) والنخيل والدراق والرمان والبرتقال من الأثمار ، وزراعة قصب السكر و القطن والزعفران والرز . وزادوا في أنواع الكروم . ولما كانت طبيعة الاندلس متوسطية وفيها سهول الجنوب الشرقي المواتية فقد توسعوا في زراعة أنواع الحبوب وأشجار الزيتون . واحتفروا لكل ذلك الترع وأقاموا عليها النواعير والأقنية وعنوا جداً بوسائل الري وإذا كان اسم مدريد – وهي من بناء العرب – مأخوذ من كلمة مجرى (وجمعها مجريط) فان اسماء هذه الزراعات

باللغة الاسبانية تكشف أصلها العربي كما تكشفه الكثير من أدوات الزراعة الأخرى .

ولعل من أبرز ما حمله العرب إلى الاندلس فن الحدائق والعناية بها . وأخبار بساتين قرطبة وحدائق الزهراء المدرجة على مستويات ثلاثة وجنائن الزاهرة تملأ الكتب كما تملأ أنفس الناس زهراً وعبيراً. ويكفي أن نراقب أسماء الكتب وكلها مشتقة من أسماء الزهور والورود والرياحين ، وأن نقرأ مقاطع الشعر الاندلسي لنرى ما كان يلعبه الزهر من دور جمالي في ذلك المجتمع . وكان من أواخر هذه الحدائق جنان العريف التي ما تزال قائمة على كتف قصر الحمراء في غرناطة . وقد ظهر أثر ذلك في قصور الاقطاعيين والملاكين الكبار بالإضافة إلى قصور الامراء والخلفاء .

٢ — وقد احسن العرب استثمار الموارد الزراعية والمعدنية في الصناعة واتقنوها . فصارت الحرف ومنتجات الصناعة في عهد الناصر والمنصور أي في القرن الرابع أتقن وأحسن ما في أوروبا كما كانت تحمل إلى المشرق في مصر خاصة.ورغم اشتهار هذا القطر خاصة بالنسيج فقد كان النسيج الاندلسي يصدر إليها من الصوف والحرير من قرطبة ومالقة والمرية وسواها من الامصار . والعرب هم الذين أدخلوا الحرير إلى اسبانيا والسكر وصناعته فاختصت بهما . وقد ذكروا أنه كان بقرطبة وحدها ثلاثة عشر ألف حائك . وازدهرت صناعة الجلود في الاندلس دباغة واستخداماً ونقشاً نافراً . ومنها انتقلت هذه الصناعة إلى مراكش فحملت من هناك الاسم الذي ما تزال تعرف به في أوروبا . وفي جبال جيان والغرب كانت تقوم مناجم الذهب والفضة كما تقوم مناجم الحديد

والرصاص حول قرطبة . ومناجم الياقوت حول مالقة.وانتقل الحرفيون الكثيرون من الشام خاصة ومـــن مصر لنشر صناعاتهم في الاندلس كالصياغة والزجاج المزوق وفن التكفيت على الفولاذ والنحاس بالذهب والفضة .

وارتقت أعمال البناء رقياً واسعاً وبلغت هندسة الجوامع والقصور والمدن وزخرفتها مبلغاً رفيعاً . وإذا كان بناء جامع قرطبة وتوسعاته نموذجاً للمساجد ولاستفادتهامن عناصر البناء المحلية وكانت القصور الضخمة التي تشبه المدن من إنتاج المهندسين العرب كما في الزهراء والرصافة والزهراء فقد بنى العرب مدناً كاملة مجددة أو جديدة في فترة الإمارة والخلافة ، ومن بعدها ، مثل بجانة والبيرة وبلدة وتطيلة والجزيرة الخضراء وشلطيش — والحاضرة ودانية ومدريد وطلبيرة وطلمنكة وطريف وغرناطة والقصر وغيرها مما بلغت عددته أربعاً وأربعين مدينة مع القلاع والحصون عدا الاسوار والطرق والمرافىء . وكثيراً ما كانوا يستخدمون مواد البناء القديمة كالأعمدة وغيرها في البناء كما كانوا يستقدمون المهندسين من المشرق والفسيفساء من بيزنطة للتزيين . ولا شك أن أسس نمط جديد للبناء قد ظهر في الاندلس وتميزت به. وقد أخذت فيه عن بلاد الشام نظام الباحات الواسعة داخل البيوت والحدائق الداخلية والتزيين المموه بالألوان والذهب والرخام والمرمر مما جعل البيوت الاندلسية نسخاً أخرى من بيوت الشام . وتقدمت صناعة السفن بدورها التقدم الواسع وقامت لها دور الصناعة في المرية خاصة . وفي مالقة التي تزود الاندلس بالمراكب التجارية والحربية . كان لها اسطولها الضخم الذي يساند تجارتها الواسعة كما يعمل للدفاع

عنها. وقد ظهر أثره بخاصة في احتلال جزر الباليار وفي رد هجمات الفايكنغ النورمان .

ولم تكن طبقة الحرفيين والعمال قليلة العدد فهي تشكل جل سكان المدن . ويذكرون أن عشرة آلاف عامل اشتغلوا في بناء الزهراء خمسة وعشرين سنة ونستطيع أن نعد من الحرف المتنوعة حوالي مائة حرفة أو تزيد . . .

٣ — وإذا كان رخاء الاندلس بصورة عامة يرجع إلى توسعها في الانتاج الزراعي وفي النشاط الصناعي الحرفي فان غناها الواسع الذي مكنها من التوسع في التجنيد وفي العمارة والأبنية وفي البذخ أحياناً فانما يرجع إلى التجارة . كانت الاندلس بالإضافة إلى تجارتها الخاصة هي الممر الطبيعي لتجارات أوروبا الغربية مع المغرب والسودان وراءه . وهي الوسيط وحلقة الاتصال . ولم تكن الواردات التجارية في هذا القطاع الحيوي من المعاش بالهينة فانها كانت مركز التبادل لحاصلاتها الزراعية والصناعية مع اوروبا .وتستورد منها العبيد الصقالبة بكميات كبيرة . وكلمة صقلي توسعت في الاستعمال فلم تعد تعني المماليك السلاف ولكنها كانت تشمل جميع من يحمله النخاسون الأوروبيون والبيزنطيون والقرصان الاسبان من أسرى الأمم في مناطقهم من السلاف والبلقان والطليان والالمان واللومبارد والفرنجة وغيرهم . تماماً كما كانت العناصر التركية في بغداد اسماً لكل الرقيق من الشرق والشمال . وكان اليهود في الأعم الأغلب هم أصحاب هذه التجارة الانسانية . وكان الخصيان من هؤلاء العبيد يجري إخصاؤهم في مدينة فردان بشرقي فرنسا ويستخدمون في البيوت . أما غيرهم فكانوا في الغالب يشترون من

قبل الحكام أدوات حربية . ويشكلون جانباً أساسياً من الجيش الاندلسي . وقد ظهر أثرهم بخاصة في زمن عبد الرحمن الناصر الذي مهد لهم . واستطاعوا أن يكونوا من بعد زعماء بعض الممالك والمدن . وإنما استخدمهم الناصر لأنه كان يريد أن يخضد شوكة الارستقراطية العربية ويبعد البربر قدر الطاقة . وقد تعرض الصقالبة بعد ذلك للنكبة على يد المنصور لخوفه من كثرتهم واتساع نفوذهم . ولكنهم بقوا قوة يحسب حسابها . وكان للجواري من هؤلاء العبيد أسواقهن ومكانتهن في القصور وأثرهن لاسيما إن تحلين بصوت جميل أو ببعض الجمال أو شدون بعض الأدب والشعر . وقد يشتهر عدد كبير منهن تروي أخبارهن كتب الأدب والتاريخ كما وجه بعضهن سياسة الدولة من خلال أزواجهن أو أولادهن . أما العبيد الزنوج فكانوا للسوق المحلية ولخدمة البيوت والزراعة . وأعداد العبيد تنبيء عن مقدار الثروة العامة وعن مقدار الحاجة إلى الأيدي العاملة والحاجة في الوقت نفسه إلى « الآلات » الحربية العسكرية . وعلى الرغم من أننا لا نملك الاحصاء الدقيق لهذه الطبقة إلا أننا نعرف أنها تكاثرت مع تمادي الثراء وأنها شكلت في بعض الأحيان طبقة ضاغطة قوية في المواقع الحساسة التي تسلمتها في الادارة والبلاط والجيش . وقد بلغ عدد الصقالبة — على ما يذكرون — في أيام الناصر قرابة أربعة عشر ألفاً في قرطبة وحدها عدا من كان منهم في المدن الأخرى .

إلى جانب تجارة النخاسة هذه كانت أوروبا تصدر الفراء والأخشاب والحديد وبعض المعادن وتأخذ بالمقابل الذهب القادم من السودان الغربي والعاج والصمغ والصوف المصبوغ واللبود والديباج والكتان . وضخامة

أثمان هذه البضائع جعلت طبقة التجار أقوى الطبقات في المجتمع الاندلسي ؛ وكدست لديها الثراء فصارت صاحبة الجاه والثروة معاً . تماماً كما كان الأمر في المشرق بحيث صار التاجر رمز الحضارة العربية الإسلامية . وصار للتجار الكلمة السياسية الأولى . وإليهم يلجأ الأمراء كلما أرادوا المال أو فرض ضريبة جديدة لا سيما في حركات الجهاد . ولم يكن يعدل تأثيرهم السياسي إلا تأثير الفقهاء رجال الدين . وكان الطبقتان تشكلان عوامل ضغط سواء على الأمراء عند اتخاذ القرار أو على الجماهير عند التنفيذ . أما الاسم الذي كان يطلق على طبقة التجار أو كبار الملاكين فلم يكن الخاصة كما في المشرق،ولكن الوجهاء والكبراء و « أهل » المدينة . وطبيعي أن توجد مقابل هؤلاء المثرين طبقة المحرومين أو المدقعين وهم يقومون في قاع المدينة والمجتمع . ويمكن أن تستنتج من ضخامة التبادلات وكثرة وارداتها والصادرات مبلغ الحركة التجارية التي يقوم بها الاسطول البحري الاندلسي خاصة ، بالإضافة إلى قوافل التجارة ، بين شواطىء المغرب من جهة ، وقد نشأت عليها لهذا السبب أعداد كثيرة من المدن الساحلية وبين شواطىء ومرافيء الاندلس من جهة أخرى،ثم بين هذه وبين المرافىء الأوروبية وبخاصة ماكان منها على ضفاف البحر المتوسط . وكان لهذه الحركة البحرية الناشطة أثرها حتى في مفردات الكلمات الاجنبية المتعلقة بالبحر .

هذا الخصب المادي الذي تحدثنا عنه بما رافقه من حركة معقدة وبراعات وإنتاج لم يكن البضاعة الوحيدة التي قدمها المجتمع الاندلسي ، في فترة الامارة والخلافة . فقد مشى بجانبه وتوجه جهد آخر أهم منه هو العمل الفكري . وإذا كان الخصب المادي قد ذهب اليوم بكل مافيه

فلم يبق منه إلا الآثار العمرانية فان الانتاج الفكري باق لنا وللأجيال وهو مأثرة الاندلس الكبرى .

حين وصل عبد الرحمن الداخل الاندلس لم تكن الحياة الفكرية العربية قد برعمت فيه . كانت عيون الفاتحين كلها متجهة إلى المشرق مرتبطة بما يظهر فيه من فكر هو في جملته ديني وبالدرجة الثانية أدبي . أما حضارة الايبيريين وفكرهم وثقافتهم فكانت بقايا قديمة يمزقها الأثر الفينيقي والروماني وأخرها القوطي.وإذا كان الروماني أبررها فان الاندلس ما كانت أبداً ذات ثقافة خاصة بها . ودخول العرب أرضها نقل إليها مركزاً حضارياً ناشئاً وناشطاً من اقصى الحوض الشرقي في البحر المتوسط ولأول مرة بعد العهد الفينيقي،إلى أقصى الحوض الغربي . كانت النقلة جغرافيـة فقط لكن الرضـاع الفكـري لهذا المركز الجديد ظل قائماً على الدوام.وكان في كثير من الأحيان صدى لجميع التطورات والتيارات الفكرية التي كانت تقوم في المشرق.كان الاشتراك في الدين الاسلامي واللغة العربية وفي الأصل والتاريخ يمنع المركز الابن من الخروج على الخطوط العامة للمركز الأب في المشرق،وإن جاهد — عبثاً — ولدوافع سياسية — في الانفصال عنه . وظهرت فيه بوادر وملامح خاصة تميزه كما ظهرت مبتكرات فنية خاصة .

كان بديهياً أن تكون اول طلائع الفكر العربي وصولاً إلى الاندلس بعـد القرآن الكـريم والحديث وعلومهما هـو الفقه . ولمـا كانت الشام أوزاعية فقد انتشر في الاندلس المذهب الأوزاعي وتأخر دخول المذهب المالكي وانتشاره إلى القرن الثالث . وقد توطد في عهد هشام ابن عبد الرحمن (١٧٢ — ١٨٠ / ٧٨٨ — ٧٩٦)ومن بعده . وكان تشدد

الفقهاء المالكية أحد الاسباب التي أثارت فتنة النصارى في قرطبة «وهيج الربض» الذي لم ينته إلا بالدماء . وجاء مع الفقه الشعر. وكان معظم الأمراء الأمويين بمن فيهم عبد الرحمن الداخل شعراء كما كان رجال البلاط وكبار الدولة والوجهاء . وقبل أن تأتي سنة ٣٠٠ / ٩١٢ كان قد ظهر في الاندلس فقهاء مالكيون كبار من مثل ابن الماجشون ومحمد ابن مزين وعبد الملك بن حبيب وأصبغ بن الفرج. كما ظهر شعراء بارزون من مثل ابن الحسين التميمي وابنته حسانة وتمام بن علقمة ويحيى بن الحكم بن الغزال ، سفير عبـــد الرحمن الأوسط إلى الدانمرك وبغداد والذي أنشد الناس من شعره وزعم أنه لأبي نواس فلم يشك الناس في ذلك بالاضافة إلى محمد بن يحيى القلفاط وابن عبد ربه .

في فترة الأمراء والخلفاء هذه كثرت حركة الناس بين المشرق والمغرب من حملة العلم والأدب والشرع وطلابهما بالإضافة إلى التجار . وكان القادمون من الاندلس والمغرب اكثر عدداً من الذاهبين إلى الاندلس بسبب الحج كما كان القادمون طلاباً وكان الذاهبون من كبار العلماء والأدباء . كانت الاندلس لم تستكمل شخصيتها بعد فكان النموذج المشرقي هو المثل الذي يحتذى ويقلد لا في الانتاج الفكري فقط، ولكن في نمط الحياة . وقد وضح ذلك عند مجيء زرياب المغني المشرقي إلى الاندلس فقد أضحى ، في شرابه وطعامه وملبسه وطريقة تصفيف شعره رمز الذوق الرفيع في قرطبة . وعلى منهج التقليد ظهرت أعداد من المؤلفات الأدبية التي كانت تجمع معظم مادتها من إنتاج المشرق، وتحاكي المشارقة . وحين اطلع ابن العميد في بغداد على العقد الفريد لابن عبد ربة بعد أن أجهد نفسه للحصول عليه : أغلقه . وقال : هذه بضاعتنا ردت إلينا ! وهذا ما جعل المشارقة ينظرون في نوع من الاستعلاء الذي كان يتألم منه الاندلسيون إلى إنتاج تلك البقاع بقول ابن حزم :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي الغرب !

وقد كانت هذه النظرة ظالمة في أحيان كثيرة. فالتجديد الشعري الذي ظهر في القرن الثاني مثلاً في المشرق تجاوزه تجديد شعري اندلسي ظهر منذ أواسط القرن الثالث هو فن الموشحات الذي ابتكره مقدم ابن معافى القبري (المتوفي سنة ٣٠٠ / ٩١٢) والذي يصاغ على نظام جديد للقوافي والاوزان ونسق جديد لتوالي الأبيات يختلف عن نظام القصيدة العربية . ويمزج العربية بشيء من اللغة الدارجة أحياناً وبشيء من اللهجة الرومانسية (لغة المولدين والمستعربين).يضاف إلى هذا أن ملامح الشخصية الاندلسية كانت تتضح باستمرار في الفقة كما في الفلسفة،وفي اللغة والنحو،كما في الجغرافا والرحلات وفي التصوف كما في علم النبات .

ولا تقل شخصيات الأدباء والعلماء واللغويين والمحدثين والفقهاء والموسيقيين التي برزت في القرن الرابع ، قرن التألق الاندلسي عن زملائهم الذي عاشوا العصر نفسه في المشرق . تقدم الحضارة المادية الواسع سمح بالغاء الفروق في الشأن بين علماء الجناحين المشرقي والاندلسي من العالم الاسلامي وإن ظلت الاعتبارات الأنانية تلعب دورها . وهكذا ظهر في هذا القرن ابن هانيء الأندلسي،متبي المغرب والزبيدي اللغوي. وظهر عدد من المؤرخين الكبار الرازي وابن القرطية والخشني وابن حبيب وفي النحو أبو الشلوبيني وفي الزجل ابن قزمان وفي العمل الموسوعي ابن عبد ربه وفي الأدب أبو علي القالي المهاجر من المشرق وابن الجسور وفي المعاجم محمد بن أبان اللخمي ، وفي التراجم وتاريخ الأدب محمد ابن هشام المرواني وابن مغيث الأنصاري ومطرف بن عيسى الغساني

وابن فرج الجناني وعلي بن عبد المحسن الفتوحي وابو بكر عبادة ابن ماء السماء وفي الجغرافيا محمد بن يوسف الوراق والأخوة أو ابناء العم المغربون الذين غادروا لشبونة يستكشفون بحر الظلمات (الأطلسي) فجروا من بحر غليظ الموج خمسة وثلاثين يوماً نحو الغرب ومثلها نحو الجنوب حتى نزلوا بجرز (لعلها جزر كناري) وقبض عليهم أهلها وأوصلوهم معصبي الأعين إلى شاطيء موريتانيا . . .

كما كان هناك ممثلون للمذاهب الاسلامية مثل بقى بن مخلد الشافعي ومن يدعون للباطنية أو النحل الخارجية. أو الاعتزال كأحمد الحبيبي وأبي وهب القرطبي . .. ويتميز عباس ابن فرناس المتوفي سنة ٢٧٥ / ٨٨٨ لا بأنه أول من أدخل الموسيقى الشرقية فقط إلى الاندلس بعد زرياب المغني ، ولكن بأنه أول من عمل الزجاج من الصخور في الاندلس وصنع في منزله قبة على هيئة السماء بنجومها والبروق وأول رجل حاول الطيران بطريقة علمية ولو أنه ذهب ضحيته . وكان الزهد والتصوف شائعين . وخلال ذلك بالطبع كانت علوم الدين الأولى فقد برز في القراءات أبو عمرو الداني وفي تفسير القرآن بقي بن مخلد وعثمان .ابن محمد بن محامس . وفي الفقة يحيى بن مزين ومحمد بن أحمد العتبي وقاسم بن أصبغ البياني ويحيى بن عبد الله الليثي وقاضي اشبيلية محمد بن يحيى المعروف بابن الحذا وابو عمر أحمد ابن مريول المعروف بابن العفيف وأبو عبد الله محمد بن عتاب.وقد اتبع المذهب الظاهري وبرزقيه ونشره ابن هلال عبد الله بن محمد والمنذر بن سعيد البلوطي.وعلى الرغم من نظرة الريبة التي كان ينظر بها إلى علوم الأوائل ومن البطء في تطورها وتقدمها لهذا السبب نفسه،فان الفلسفة كان لها سوقها . وقد ظهر في

ميدانها ابن مسرة ومدرسته ، كما ظهر في الدراسات الرياضية والفلكية احمد بن نصر ومسلمة بن حاتم القرطبي ومسلمة المجريطي اقليدس الاندلس ، وتلميذه أبو القاسم بن السمح وبرز من الأطباء ابن عبدون الجبلي،ومن علماء النبات حمدين بن أبان وخالد بن يريد النصراني . وترجم كتاب ديوسقوريدس في الطب الذي كان له أثره الحاسم في مجرى دراسات الطب والنبات في الاندلس ، وعرف بالصناعة الطبية ابناء يونس الحراني أحمد وعمر أيام المستنصر واختصا به. وأكبر نباتي ظهر في عصر الخلافة هو أبو داوود بن جلجل طبيب هشام المؤيد وصاحب كتاب تاريخ الحكماء.على أن أعظم رجال الطب في هذا العصر هو ابو القاسم الزهراوي الجراح الذي ظل كتابه في الجراحة ينسخ وينشر حتى القرن التاسع للهجرة ويليه زان لم يشتهر مثله ابو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بابن الكتاني .

وقد رأى اليهود من التسامح والفرص في هذا العهد ماجعلهم يبرزون بدورهم في دنيا العلم والثقافة فمنهم حسداي بن شبروط في الدراسات التلمودية ويهودا بن داوود واضع النحو العبري .

هذه الجمهرة الواسعة من رجال الشعر والأدب والفقه والعلوم والنبات منحت عصر الإمارة والخلافة تألقه وعبرت عن مدى تفتحه وعن القوى الفكرية الكامنة فيه . كما تجاوبت في الوقت نفسه مع ازدهاره الاقتصادي وقوته العسكرية والسياسية وكان طبيعياً أن تتفتح ليعتبر العصر كله عصر تكون حضاري نام ومتزايد ، حي . فهي خلاصته ووجهه الحقيقي، ولون أساسي من ألوان نشاطه وعناصره المكونة .

ويتجلى مجد القرن الرابع الاندلسي في أن«كل فرد في الأندلس الإسلامية تقريباً كان يحسن القراءة والكتابة » . وعملية التنوير العام هذه

تكشف مدى رغبة الجماهير بالعلم. كما تكشف عن وجود الامكان المادي لديهم كي ينفقوا على تعليم ابنائهم وعن استطاعتهم الاستغناء عن انتاج هؤلاء الأولاد لفترة من الفترات يتعلمون فيها. أما على المستوى الأعلى فقد سبق عبد الرحمن الثالث خلفاء المشرق والفاطميين معاً حين تبنى عمليات التدريس في جامع قرطبة، وتعيين المدرسين فيه وأجرى مفتتحاً بذلك « جامعة » سبقت بوجودها قيام « جامعة الأزهر » بعشرين سنة وقيام المدرسة النظامية في بغداد بمائة سنة. ولم يعاصره في مثل ذلك العمل الا مدارس نيسابور. وقد قصد العلماء والطلاب جامعة قرطبة لا من اسبانية فقط ولكن من غرب اوروبا وايطالياً من المسيحيين، ومن افريقية (تونس)، ومن المشرق. ثم وسع الحكم ابنه، ذلك الخليفة العالم، حلقات التدريس في الجامع واستدعى لها الشيوخ المدرسين من المشرق وأجرى عليهم المرتبات كالفقيه البغدادي إبي على القالي صاحب الأماني والمؤرخ ابن القوطية وغيرهم. وقد تنافس الناس في تلك الفترة في اقتناء الكتب. على مذهب الحكم — فكثرت المكتبات الخاصة وعلى رأسها مكتبة الحكم نفسه التي بلغت عدة مجلداتها اربعمائة ألف مجلد وبلغت فهارس الدواوين الشعرية فيها فقط أربعة وأربعين فهرساً كل فهرس في عشرين ورقة. ويقولون إن الحكم قرأ مافي مكتبته جميعاً وعلق عليها بالحواشي كما جعل المكتبة كلها دارنشر. وبلغ من شهرة بعض المدن بهذا كله أن قال ابن رشد يرد على ابن زهر مفاخراً: « إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة لتباع فيها وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى أشبيلية . . . »

بهذا كله بلغ عصر الامارة والخلافة في الاندلس أوج أزدهاره ومجده.

ملوك الطوائف والعهد المغربي

يعتبر المؤرخون القرن الخامس ، من تاريخ الاندلس ، قرناً مظلماً أسود لأن المملكة الاندلسية تناثرت مزقاً تزيد على العشرين. ويسمون هذا العصر بعصر ملوك الطوائف . ففي كل مدينة دولة ولكل مقاطعة حدود وبلاط ورجال . وقد دام ذلك حوالي ثمانين سنة . وانتهى باحتلال القوة التي ظهرت يومذاك في المغرب للأندلس واكتساحها هذه الدويلات أو معظمها . والواقع أن هذا القرن لم يكن — فيما عدا الأوضاع السياسية — يقل عن القرن الذي سبقه تألقاً وحضارة وغنى ولعله كان من الناحية الثقافية وفي الغنى التجاري أخصب منه . ولكن المؤرخين يزنون هذا العصر بالميزان السياسي فحسب . ويجب أن يوزن من جميع نواحيه . وعند ذلك تنكشف قيمته . صحيح أن الغزوات فيه انتهت . وبدأت بالعكس الهجمات النصرانية المعاكسة . وصحيح أن القوى المغربية الفتية والمجاربة تسلطت على الاندلس بسبب ضعفها وعدم قدرتها على التحرك . لكن ذلك إنما تم بسبب ضعف القوة المركزية في قرطبة وتمزقها . وقد توزعت القوة الاقتصادية بين المتنفذين في المدن والمرافىء والمقاطعات وكانت بسبب استمرار حركة الانتاج والتجارة على نشاطها ، كافية لإقامة اكثر من عشرين بلاطاً بدل البلاط الواحد

ولتمويل اكثر من عشرين أميراً بما يجبون من نفقات الإعمار وتشكيل الجيوش وإجازة العلماء وتسديد كافة نفقات الملك . ولعل السبب العميق لظهور هذه البلاطات والطوائف المتعددة هو بالضبط هذه الوفرة في الموارد، فقد سمح ذلك لكل طامع بأن يحقق مطمعه على حساب المركز الذي انهار منذ مطلع القرن مادامت القوى الاقتصادية الناشطة لا تسمح بأن تقدم له كل الإمكان. ولكي يساند المتنفذون مطامعهم الشخصية عادوا إلى العصبيات الأولى فأيقظوها من عرقية ودينية واجتماعية . فقام في الاندلس الوان من العلاقات المعقدة اشترك فيها حتى الدول الشمالية النصرانية مداً وجزراً . فما قامت الدولة المرابطية في المغرب حتى كان تطلعها الأساسي إلى هذه الدول الضعيفة في الاندلس ، فاحتلته بكل بساطة ، في عمليات حربية ظاهرها الانقاذ والغيرة على الاسلام وإن كانت لا تخلو من الفكرة التوسعية .

كادت الدولة العامرية تشكل في قرطبة ماشكلته الدولة البويهية في بغداد ونعني وجود سلطة دينية تتمثل في الخليفة وسلطة تصرف أمر الدولة تتمثل في العامريين وبخاصة بعد ان توالى بعد المنصور ابنه المظفر على منهاجه في صون وحدة المملكة وحفظ هيبتها ست سنين حتى مات . ويرجحون بأن أخاه الذي تلاه عبدالرحمن هو الذي سمه. لكن هذا الرجل لم يكن جديراً بتراث جده وأبيه وكان الناس يسمونه شنغول (أي شانغة الصغير لأن أمه كانت ابنة شانغة ملك نافارا) ونقموا عليه حين طمح إلى تولي الخلافة واستصدر من الخليفة هشام المؤيد كتاباً بمنحه ولاية العهد . وانتهز محمد بن هشام أحد أحفاد الناصر غياب شانغة في الشمال فأعلن الثورة في قرطبة. ولكن شانغة بقي على عناده وكبريائه وهو عائد . حتى إذا وصل قرب العاصمة رأى جنده ينفض معظمهم عنه. وقبض عليه

وقتل . وانتهت به الدولة العامرية لتعقبها فتنة لم تبقى ولا تذر . فقد تدفق العامة النهابون على الزهراء فأتوا عليها نهباً وحرقاً وهدماً فصارت أثراً بعد عين في حين أجبر الخليفة هشام على التنازل

تسمى محمد بن هشام الخليفة الجديد بالمهدي ولكنه لم يكن كاسمه مهدياً أبداً .

– فقد كان الغنى الواسع الذي تمتعت به قرطبة يقابله في قاع المجتمع فقر فاحش . الطبقات المحرومة التي كانت تتجمع فيها يجتذبها سمعة الغنى والرفاه كانت تنتظر فرصتها، كما كانت في بغداد . فلما اندفع بها محمد بن هشام لهدم الزاهرة ونهبها لم يستطع إلجامها بعد ذلك. لاسيما بعد أن اعتبرت تنصيب الخليفة الجديد نصراً لها. ورأى هذا الخليفة فيها قوة له فأعتمد عليها . وبين المزامر والملاهي والأفراح العامية اندفع جند العامة يتجاوزون على القواد والوجوه وينهبون بعض دورهم مما جعل الطبقة العليا والموسرة تنكمش عن المهدي .

– ثم إنه أعلن موت الخليفة السابق هشام المؤيد وأتى بجثة تشبهه وشهد له بعض الشهود بذلك .

– وكسب عداء العامريين حين أسقط منهم من الجيش نحواً من سبعة آلاف اتجهوا إلى شرق الاندلس .

– وأعلن بغضه للبربر وسكت عن نهب بعض الدور لزعمائهم .

بالاضافة إلى قسوته مع خصومه وجعل جماجمهم أحواضاً للزهور ...

وهكذا تشكل من هؤلاء جميعاً حزب معاد – انضم إلى منافس له من أبناء عمه. لكن المعركة بين الاثنين انتهت بانتصار المهدي . مما

أشعل الفتنة بين البربر والعامة في قرطبة وكانت مذبحة بشعة خرج البربر اثرها إلى الثغر . واتخذوا من بعض الأمويين خليفة لهم بايعوه على أمل العودة إلى قرطبة وعزل المهدي . لكنهم قاسوا أثناء عودتهم من الشمال أقسى المجاعة حتى اقتاتوا بحشيش الأرض لأن صاحب طليطلة الموالي للمهدي هدد بالقتل والمصادرة كل من يحمل إليهم طعاماً ! واندفع الطرفان يطلبان مساندة صاحب قشتالة لهم (وتسميه المصادر ابن مامة) فاختار أن يساند البربر الذين تخلوا لهعن بعض المدن وهزموا في موقعة دامية (محرم سنة ٤٤٠) جيش المهدي . ثم لاحقوه إلى قرطبة . فهزموه هزيمة نكراء وأعملوا السيف في جيشه . حتى ليقال إن عدد القتلى بلغ عشرة آلاف من أخلاط الناس . ولم تنفع المهدي أنه عاد فأظهر للناس هشاماً المؤيد حياً من جديد . . . فقد تمسك البربر بسليمان بن الحكم الذي تلقب بالمستعين. وهرب المهدي إلى طليطلة يستعد للعودة وظهر بوضوح أن الحرب الأهلية قد اندلعت . . .

أعقبت هذه الفتنة موقعة ثالثة بين الفريقين استعان فيها المهدي بالنصارى الذين كونوا ربع جيشه. فهزموا سليمان وجيشه البربري حتى أوصلوهم إلى الجزيرة الخضراء ثم كانت موقعة رابعة وخامسة . وكان الرهان على احتلال قرطبة !

في تلك الحرب الأهلية كان المحرومون وحدهم هم الرابحون لأنهم نهبوا مدينة الزهراء بكاملها. وسلبوا جامع قرطبة حتى قناديله والمصاحف وصفائح الأبواب . وحاصر البربر بعد ذلك قرطبة وقطعوا عنها المؤن فانعدمت الأقوات وجاءت السيول فخربت جوانب عدة منها ثم دخلوها فنثروا فيها الاشلاء والخراب والدماء . . . في هذه الحرب

ومارافقها من موجات السلب والنهب توالى على الخلافة تسعة خلفاء خلال اثنين وعشرين سنة ثلاثة منهم تولوا الخلافة اكثر من مرة . وربما كان عبد الرحمن الخامس أفضلهم حكماً لكن بعضهم لقى أسوأ المصير كالمستكفي.على أن أعجبهم أمراً كان الأول هشاماً المؤيد فقد مات ثلاث مرات ! وأحيي مرتين ! وحجز في قصره ثلاثين سنة ! وكان ضعفه الطفولي سبب معظم الكوارث . فلما جاءت سنة ٤٢٢ / ١٠٣١ وصل الخليفة الأموي هشام الثالث إلى حال تستدعي الرثاء لأنه سجن وكان يشحذ كسرة الخبز لطفلته ويدفع عنها البرد بنفسه . واجتمع الوزراء وقرروا إلغاء الخلافة الأموية . وحكم قرطبة المنهكة جماعة من كبار المدينة حكماً أو ليغاركياً يقوده ابن جهور .

قبل أن تسقط الخلافة الأموية بزمن كان التفاوت الطبقي قد فعل فعله . كانت جماهير الشعب قد ملت كثرة الخصومات والقتال وتبدل الحكام . وقد اشتاقت الاستقرار . فانتهزها كبار الوجهاء والقواد فرصة للاستيلاء على السلطة وهكذا بدأ كل متزعم يوطد لنفسه . وأول هؤلاء كان بنو حمود الذين اختطفوا الخلافة قبل سقوطها بكثير . وكان لهم نسب إلى علي بن أبي طالب ولو أنهم من البربر فتوالى منهم في حكم قرطبة ثلاثة هم علي والقاسم ويحيى بين سنتي ٤٠٧ / ١٠١٦ و ٤١٨ / ١٠٢٧ .

سقطت خلافة الأمويين ولم يكن قد مضى على عهد ازدهارها زمن المنصور وابن أبي عامر ربع قرن والاسباب كامنة في هذا الازدهار نفسه وفي التعقيدات التي نشأت عنها . ومن تلك الاسباب :

١ ــ أرهق هذان العاهلان ميزانية الدولة رغم غنى مواردها

وتوفر الثروة في القاعدة الاقتصادية التي تقوم عليها بالغزوات والحروب المتكررة ، وبشراء الصقالبة ثم اصطناع المرتزقة من البربر ، بالإضافة إلى ما أنفق في بناء مدينتي الزهراءوالزاهرة. وما احتجنه لناصر والمنصور أيضاً من المال لأنفسهم من دافعي الضرائب الذين يرهقون ويتذمرون من كثرة الالحاح المالي واستمراره .

٢ — كما أن هذين العاهلين قد دمرا بايديهما القاعدة العصبية التي تقوم عليها الخلافة وهي القاعدة العربية مع أنهما عربيان . واعتمدا بسببحذرهمامن توثب العرب على الصقالبة ثم على البربر وأوسعا لهم في الدولة المكان العريض الذي زاد من أطماعهم ومن إدلالهم فيها ومن تطاولهم بعد ذلك حتى على الخلفاء ولم يعتمد هؤلاء الخلفاء سياسة التوازن بين العناصر المختلفة التي يتكون منها المجتمع الاندلسي بل زادها الناصر وابنه بالصقالبة اللذين كان زعماؤهم في عهده ستة فصاروا في عهد أبنه عبد الملك ستة وعشرين ولعبوا في قرطبة دور الحرس الامبراطوري في روما القديمة ودور المماليك عند انهيار السلطة العباسية إثر المتوكل .

٣ — عدم اندماج هذه العناصر بعضها مع بعض رغم تعايشها ثلاثة قرون.ولم يكن ذلك فقط بسبب سياسة الخلفاء فحسب. ولكن بسبب البيئة الجغرافية أيضاً ، فقد توضعت المجموعات البشرية بسبب تجمعها وعصبياتها في أماكن محددة فكان العرب في قرطبة ومنطقتها ، وكان العنصر الغالب على اشبيلية وطليطلة من المولدين . واكثرية غرناطة وقرمونة ومالقة من البربر . ولم يتح لهم تكوين مجتمع واحد متماسك لأن الحواجز الجغرافية كانت تقوم بين هذه التكتلات.وكان تجاوزها ، في ذلك الزمن صعباً .كما كانت لكل مجموعة نوعية من الاقتصاد

المعيشي مختلفة عن الأخرى .ولكل فئة تطلعاتها السياسية التي تخمدها القوة المركزية ولكنها لاتلغيها . وتتركها قابلة للثورة عند كل ضعف .

٤ — ولم يمر القرن الخامس / ١١ م ، دون أزمات اقتصادية تختلف في حدتها بين الضيق وبين المجاعة . وإذا لم تكن الطبقات العليا في المجتمع تتأثر منها بوضوح فان الطبقات الدنيا وبخاصة في المدن الكبيرة كانت تدفع غالياً ثمنها سواء من إجهادها أو من أمراضها وموتاها . ولعل أقساها تلك الأزمة التي استمرت ما بين سنتي ٤٣٠ — ٤٥٠ / ١٠٣٨ — ١٠٥٨ ووصلت شدتها في بعض المناطق درجة أكل الميتة من الدواب،وأكل الكلاب . كما أقفرت أقساماً من الريف الزراعي .

٥ — دور الدول الشمالية النصرانية في نصرة المتنازعين على السلطة مرة بعد أخرى . فقد كان هم هذه الدول الشاغل إضعاف القوة العربية الاسلامية بأي طريق . وقد قدم لها المتنازعون من جميع الأطراف أفضل الفرص للكسب عن طريقهم توسعاً في الأرض واحتلالاً للمدن وشراء بالمال مما يسمح لممالك قشتالة وليون خاصة بالتدخل في أخص الأمور الداخلية للدولة وفي اختيار الخلفاء .

قبل الانهيار النهائي للحكم الأموي كان الأمراء والحكام في نواحي البلاد يعدون أنفسهم للانفصال.وبلغت ببعضهم الدعوى أن أعدوا العدة ليرثوا الخلافة نفسها . وإن كان بعضهم من جهة أخرى قد حاول أن يشد إليه رداء الشرعية بالتستر وراءها ولو بالبهتان . فلما أعلن انتهاء الأمويين تمزقت الدولة على الفور — إن لم تكن تمزقت من قبل — أقاليم ومدناً ففي كل ناحية دولة وأمير.كما لو ألقيت طبقاً من الصيني إلى الأرض . اطبق كل متنفذ على ما بيده وأقبل يطلب على حساب الآخرين

المزيد.أكثر من ستة وعشرين دولة تنازعت أرض الاندلس . فلكل طائفة قطعة.وهذا ما سماه المؤرخون بملوك الطوائف . وبصورة عامة استبد الصقالبة بالسلطة في جميع المدن الشرقية في حين ذهب البربر بسلطان المدن في الجنوب. وكان للعرب الباقي مثل اشبيلية وسرتسطة وطليطلة وبطليوس واختلفت مساحات هذه الدول كما اختلفت مواردها الاقتصادية وسياساتهاولم تنفع صيحات أهل الفكر من علماء الدين وأصحاب الاقلام في إيقاف هذا التردي السياسي . وغر الأمراء الغرور منهم فكانوا :

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد !

وليس يفيد أن نقف عند هذه الدول واحدة واحدة . ولكننا يجب أن ننظر إلى ما تفعله الوفرة الاقتصادية عند انحلال السلطة التي تجمعها وتوجهها . فقد ظهر بكل دولة بلاط مصغر يجمع من الضرائب ما يكفي لتمويل مشاريعه أو ليفيض منها ما يكفي لتمويل أعماله الحربية والعمرانية ولإسباغ العظمة والسمعة عليه . وتأقلم الجو الاقتصادي — الاجتماعي بسرعة مع هذا التغير الذي يرضي عصبيات المجموعات اشختلفة في أقاليمها . ويسمح بهامش واسع أو ضيق للحروب والنزاعات بين هذه الدول الصغيرة . وللحرب أو للاستعانة بدول الشمال النصرانية ، ولإغداق الجوائز على الشعراء أبواق الدعاية والمنح للعلماء مرضاة للشعور الديني . وهكذا كان التردي سياسياً فحسب كما جرى في خلافة بغداد في القرنين الرابع والخامس . أما الحركة الاقتصادية والنشاط العلمي والعمل العمراني فظل على حاله من الانتاج والعطاء .

تسلم الحكم في قرطبة بنو جهور حوالي أربعين سنة . وكانت غرناطة

عاصمة بني زيري البربر ثمانين سنة . أما مالقة وماحولها فقد استبد بها بنو حمود اربعين سنة. وقام في طليطلة بنو ذي النون البربر نصف قرن. وفي سرقسطة ولأكثر من قرن قام بنو هود. وفي حين تراجعت قرطبة عن المركز الأول بين مدن الاندلس برزت اشبيلية واحتلت هذا المركز بحكامها من بني عباد اللخميين . و السبب أن طريق التجارة الأساسي صار يمر بها بعد أن دهمت قرطبة الكوارث المتتالية . وفقدت مكانتها بوصفها عاصمة للدولة . بالإضافة إلى أن رقعة اشبيلية التي آلت إليها كانت اكبر ومواردها أوفى .

في ذلك الحين الذي أقام فيه الحكام الأخرون دولاً لأسرهم في المناطق التي وجدوا فيها تميزت كل من اشبيلية وقرطبة بنظام من الحكم شبيه بالجمهوري أو الأوليغاركي . فقد كانت الأسر العربية في هذين البلدين قوية وتشكل طبقة ذات نفوذ ورجال . ولم يشأ أبو الحزم جهور بن محمد أن يتحداها وهو يرى ما آل إليه التنافس على الحكم من حروب وقتل وفوضى . فعمد مع القاضي أبي القاسم بن اسماعيل بن عباد الذي ظهر في اشبيلية .وكل منهما بمفرده، إلى اشراك هذه الأسر نفسها في الحكم خشية انتقاضها ورغبة في وضع حد للفوضى والتنافس . ولم يكن الناس قد اعتادوا هذا النوع من الحكم فاستغربوه بادىء الأمر ثم انصاعوا لإرادة أبي الحزم في قرطبة . فأشركوا معه اثنين اختارهما بنفسه لاقامة مايسمى بحكم الجماعة وشكل وزارة تساعده في تسيير الدولة . وأقام للاستشارة مجلساً من الوجهاء المحترمين في المدينة . يرجع إليه الرأي وتسمى بعميد الجماعة . ولم يقبل حتى بأن يغير مسكنه أو يتسلم بيت المال . وفعل الشيء نفسه القاضي ابن عباد صاحب اشبيلية الذي أشرك معه

في الحكم بعض الوزراء ومجلساً من الاعيان . وظهرت بذلك نواة الحكم الديمقراطي بين عرب الاندلس . لكن الحكام الأخيرين من هاتين الاسرتين عادوا إلى الشكل التقليدي من الحكم لأن التفرد فيه أغراهم كما لم تشع الطريقة الجديدة بين الحكام الآخرين .

وقد تنافس كل من البلدين على محاولة إحياء الدولة بتوحيد اجزائها. لكن بني جهور لم يكونوا من الموارد بحيث يملكون القوة العسكرية الكافية. عدا أن أبا الحزم وابنه الوليد (٤٢٢ - ٤٥٦ / ١٠٣١ - ١٠٦٣) كانا يميلان إلى السلم. وأما العباديون فقد سمحت مواردهم باقامة قوة عسكرية جعلتهم أقوى دول الطوائف وأهمها. وتوسعت مملكتهم بالاستيلاء على عدد من إمارات الطوائف الأخرى. ومن جملتها قرطبة نفسها سنة ٤٦٢/١٠٧٠ . لكن الثورات المتوالية كانت ترهقهم، وبقاء عدد من ممالك الاندلس مستقلاً بعيداً عن سيطرتهم ،والتوغل النصراني السريع في امارات الشمال الاسلامي، كل ذلك حرم العباديين من إعادة الوحدة لدولة الاندلس ومن إحيائها .

كان العباديون أسرة مثقفة من الأسر البارزة في اشبيلية حكمتها بين سنتي (٤١٤ - ٤٨٤ / ١٠٢٣ - ١٠٩١) .وقد تصدى محمد بن عباد للدفاع عن مدينته ضد بني حمود أصحاب مالقة، ولم يكن اكثر من قاض في البلد . لكن الأسر المتنفذة سلمته الحكم فأداره على أساس شبه جمهوري محاولاً أن يخلع على حكمه الصفة الشرعية، عن طريق اعتراف أموي به، زيف من أجله آخر الخلفاء الأمويين هشام بن الحكم المفقود .وحين توفي سنة ٤٣٣ تولى الأمر ابنه ابو عمرو عباد بن محمد الذي تلقب بالمعتضد . (٤٣٣ - ٤٦١) وآنس من نفسه القوة على التصرف بمنهج الخلفاء فألغى

مجلس الوجهاء وقضى على خصومه بقسوة جبارة . وأخذ يتحاشى بالمناورة البارعة هجمات ملك قشتالة وليون الذي كان همه النضال العنيف ضد المسلمين . وتلاه ابنه ابو القاسم محمد بن عباد الذي تلقب بالمعتمد (٤٦١ — ٤٨٤) ولهذا الأمير سمعة واسعة في الأدب والسياسة بسبب شعره والمأساة التي عاشها .

ورث المعتمد دولة عريضة نسبياً تكاد تنتظم الجنوب الغربي كله من الاندلس . ثم وفق إلىافتتاح قرطبة أول مرةسنة٤٦٤.ثم تركها بعد أن تحالف أحد المطالبين بحكمها مع أمير طليطلة . ومات فيها ابنه عباد الذي كانيحكمها . وهو ما يزالفتى صغيراً . زقد ثأر المعتمد لابنه سنة٤٧١ باستردادها.كما انتزع من أمير طليطلة الأقسام الجنوبية من ممتلكاته . لكن هذا النجاح ، في إطار التوحيد للدولة ، قابله خطر داهم من ملك قشتالة ليون الفونس السادس (ابن فرد يناند)الذي احتلسنة٤٧٨/١٠٨٥ طليطلة من بني ذي النون بعد حصار خمس سنوات . قاصماً بذلك ظهر الأندلس باستيلائهعلى هذه المدينة،وهي خط الدفاع الثاني ومفتاح الشمال كله والمطالبة بما كان انتزعه المعتمد من أملاكها . ولم يكتف بذلك بل زعم وقوع إهانة على جابيه اليهودي واندفع في غزوة لمملكة اشبيلية بلغت الشاطىء الجنوبي للأندلس عند جزيرة طريف . واضطر المعتمد إلى أن يدفع الجزية لألفونس كما كان يدفعها لأبيه من قبل .

كان هذا أول وأقسى تحد نصراني عرفه الحكم العربي في الاندلس منذ الفتح . وإذا لم يجرؤ الفونس على الاحتفاظ بشيء من الأراضي التي غزاها فقد استبان في عمله ضعف أقوى أمراء الطوائف على الأقل . وانكشف للناس الخطر الذي تمثله القوة النصرانية المتحفزة.فقد دقت

باحتلال طليطلة قاعدة الثغر الأدنى للمسلمين اسفينـاً في قلب الأندلس يفصل شماله عن جنوبه ويمهد لتصفيته النهائية . وقد عبر عن ذلك الشاعر الطليطلي المعاصر ابن العسال قائلاً :

شدوا رواحلكم يا أهل اندلس   فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى   ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

كان المعتمد فناناً شاعراً كابيه ولقد بزه في مضمار الأدب وإن لم يبزه في مضمار النساء. ولم يجتمع بباب أحد من ملوك الطوائف ما اجتمع على باب قصره من الشعراء . وتمتلىء كتب الأدب بأخباره وأخبار جاريته وزوجته اعتماد الرميكية وأخبار حفلاته وأنسه.وعلى الرغم من ذلك فانه لم يكن غـافلاً عن الزحف الاسباني ضده لاسيما حين أضحى الفونس طاغية الشمال وتوحدت تحت حكمه مملكتا ليون مع جليقية ونافارا اللتين استولى عليهما . وتسابق أمراء الطوائف في السعي لكسب مودته .واتخذ لنفسه لقب الامبراطور . ثم جاء ابنه من بعده فزاد في ألقابه لقب « ملك ابناء الديانتين»وتوالت الغارات الشمالية على أراضي بني عباد حتى بلغت قادس في أقصى الجنوب . وزاد الخطر والحرج .

كانت هذه المملكة النصرانية تقوى وتتوحد باقتسامها وحدها معظم موارد التجارة وحركة الذهب السوداني المتجه إلى أوروبا والذي سمح للممالك الفرنجية،ولأول مرة، بصك النقود الذهبية،في حين كان ملوك الطوائف الممزقين يخسرون بتقسيم تلك الموارد بينهم،وإنفاقها على القوى المبعثرة والبلاطات المتعددة والعظمة الفارغة . وفي هذه الغمرة ظهر بين نصارى الشمال فارس مغامر من قشتالة عرفته القصص باسم السيد فأرهق

مملكة اشبيلية بغاراته حتى غدت أساطير تروى ودخل اسمه دنيا الملاحم .
وتلفت المعتمد يريد سنداً فلم يجد سوى القوة الاسلامية التي ظهرت
في تلك الفترة وراء العدوة . واستولت على معظم المغرب . وهي قوة
المرابطين . فقرر الاستنجاد بها . وحين حذروه أن ملكه سيكون الثمن
قال : خير لي أن أكون راعي جمال في افريقية من أن اكون راعي
خنازير في قشتالة !

وبعث يستجير !

كانت الدولة الشمالية النصرانية قد أخذت تسمى تحدياتها العسكرية
وانتصاراتها ضد ملوك الطوائف « بحرب الاسترداد » . وقد شجعها
تمزق دولة الأندلس على ذلك ، وعلى رسم هذا الهدف العريض والبعيد
أمامها . لكن هذه الحروب لم تكن في الواقع تحمل هذا المعنى الوطني
بقدر ما كانت تمثل الجشع الاقتصادي لدى دول الشمال . ورغبتها في
الافادة من غنى الجنوب الاندلسي في الغنائم وفي الثروة التجارية واستغلال
تمزقه السياسي وضعفه في التوسع الجغرافي ، وما برحت المناطق
الحضارية الغنية هدفاً لتحرك القوى البدائية المجاورة ضدها . فالإغراء
دوماً قائم . وكان رجال الدين بصورة خاصة هم الذين يغذون بنفوذهم
الروحي حرب الاسترداد هذه . وبذلك بدأت في الواقع والتاريخ
ماعرف فيما بعد باسم الحروب الصليبية . إنها لم تبدأ بهجوم الغرب
الأوروبي على المشرق والشام. ولكنها بدأت بالهجوم على أملاك الدولة
الأندلسية وظلت دائرتها تتوسع ويغريها النصر بالمتابعة حتى شملت
صقلية ثم وصلت أخيراً بلاد الشام. وكان لها في كل منطقة اسلامية
شعار تتستر وراءه . فهي وطنية في اسبانيا وهي توسعية في صقلية وهي

دينية في الشام لتحرير القبر المقدس مع أنها جميعاً اقتصادية الجذور وإنما قامت لحل مشاكل أوروبا الاقتصادية ولتحقيق أطماعها في ثروة البلادالاسلامية وبضائعها الثمينة وطرقها التجارية وفيحضارتها المتفوقة .

وقد سبق الحروب الصليبية والصدام القتالي بين نصارى الغرب والاسلام تنافس تجاري عنيف بين أساطيل الطرفين في الحوض الغربي للبحر المتوسط، بما في ذلك القراصنة من الجانبين أيضاً . هذا التنافس . الـــذي دام طول القرن الرابع / العــاشر الميلادي وكان قوامه أساطيل الفاطميين ودولة الأندلس في عهد كل من المنصور والناصر كانت الكفة الراجحة فيه والقوية للطرف الاسلامي . غير أن هذا الرجحان انقلب في القرن الخامس ليصبح في جانب الغرب الأوروبي النصراني . لأسباب عديدة منها :

الأول : انتقال مركز الفاطميين من افريقية (تونس) إلى مصر . والتنافس مع بيزنطة في الحوض الشرقي للمتوسط .

الثاني : ضعف القوى البحرية للزيريين في افريقية بعد انسحابهم من صقلية وتغلب النورمان عليها وسيطرتهم على مالطة من جهة وتضخم نفوذهم البحري في الحوض الغربي للبحر المتوسط حتى قال أبو العرب ابن أبي الفرات شاعر المعتمد بن عباد :

البحر للروم لايجري السفين بـــه إلا على غرر والبر للعـــرب

الثالث : تمزق الاسطون الاندلسي الحربي بين القوى المتعادلة لدى الطوائف مما بعثر جهودها وفعاليتها . يقابل ذلك زيادة نشاط الاساطيل النصرانية في ايطاليا (بيزا وجنوة) وجنوب فرنسا وتوسع

جشعها التجاري الناجم عن زيادة السكان والتوافر المتزايد للثروة والأطماع لديها . كانت مطالع مايسمى بنهضة القرن الثاني عشر (السادس الهجري) قد بدأت في أوروبا الجنوبية محركة فيها جميع النشاطات حتى وصلت درجة الهجوم على السواحل الافريقية والاندلس والتطلع للوصول بالحرب الصليبية إلى الشام .

في فترة الانحسار البري البحري هذه ووضوح آثارها في الأندلس جاءت استجارة المعتمد صاحب اشبيلية بابن تاشفين في المغرب .

ولم يكن المرابطون بالمقابل في حاجة إلى من يدعوهم إلى الاندلس ليتحركوا إليه . لقد كان هدفاً من أهدافهم. فهو تتمة طرقهم التجارية الىأوروبا . كما لم يكن المعتمد يعرف أنه بهذه الدعوة قد قضى على معظم ملوك الطوائف مرة واحدة وعلى مملكته معها . فقد كانت روح الشاعر لا السياسي هي التي تغلبه . وجاءته النجدة . وجاءت النكبة ـ المأساة الشخصية معها .

ومن المفارقات أن الخط البياني للامور الفكرية قد يترافق مع الخط البياني السياسي في الصعود . وهو يصعد ببطء . ولكن لايهبط معه حين يهبط بل يستمر على الأقل في مستواه الذي وصله طويلاً . ذلك أن السياسة تتعلق بقوة الدول الاقتصادية ـ الاجتماعيةوضعفها . أما الحياة الفكرية والفنية فانها تتجاوز هذا الحاجز متى انطاق وتبقى ـ فيما عدا فترات العواصف الجائحة ـ منتجة مبدعة ، رغم الضعف السياسي . جرى هذا في المشرق كما جرى في المغرب الاندلسي . وهكذا لم تتأثر الحياة الفكرية والفنية في هذا القرن ، قرن الحروب الأهلية والفتن وتناثر الدماء والتمزق والطوائف،واستمرت على إنتاجها السابق،

لأنها لم تخسر مقومات وجودها من جدة وتذوق وهواة ، ومن أمراء يمنحون وجماهير تقدر أهل العلم . وكان ملوك الطوائف كلما تدهور سلطانهم ازدادوا تنافساً على الشعراء ومدائحهم ،وعلى العلماءوما يحملون معهم من السمعة ، في نوع من التعويض . وقد وجد الشعراء أكثر من باب يقفون عليه كما وجد العلماء أكثر من بلاط يستقبلهم بالرعاية والترحاب .

في عصر ملوك الطوائف هؤلاء وجد ابن زيدون الوزير الشاعر وصاحبته الشاعرة ولادة (بنت الخليفة المستكفي)ووجد قبلهابن دراج القسطلي في قرطبة . وراجت الأشعار والأزجال والموشحات في ظل بني الافطس في بطليوس رغـــم أنهم من البربر في الأصل وقد اصطنعوا لأنفسهم نسباً عربياً . وتحت جنـــاح آخر ملوكهم عاش عبدون ابن قزمان (المتوفى سنة ٥٥٥) أبرز زجال عرفته الاندلس . وبرز المعتمد الأمير الشاعر في اشبيلية .ومعه في بلاطه كوكبة من رجال القافية كابن حمديس الصقلي ، وابن اللبانة الداني ، وفي غرناطة وصلها من المشرق أبو الفتوح الجرجاني الفيلسوف الفلكي . وظهر ابن النغدلة اليهودي العالم والذي تسلم الوزارة ، وأبو اسحق الالبيري الفقيه . وإذا لم تنفــق ســوق الأدب لدى أمـــراء الـــدول البربرية مثل مالقة والجزيرة الخضراء وقرمونة واستجة ورندةوشريش فقد دخلت هذه الامارات وغيرها في حوزة أصحاب اشبيلية . أما شعراء المعتصم ابن صمادح صاحب المرية فكثيرون رغم صغر الإمارة ومنهم أبو الفضل البرجي الحكيم الفيلسوف وابن الحداد الوادي آشي ، وأبو عبيد البكري الجغرافي المعروف ، وفي بلنسية ومرسيه كان ابن وهبون المرسي والأقشي . وفي سرقسطة عاش ابن باجة الفيلسوف الموسيقي الشاعر .

ولم يكن غريباً بعد غروب فترة الأوج أن يظهر المؤرخون الكبار .
وهكذا ظهر أبو مروان حيان بن خلكان أعظم مؤرخي الأندلس ،
ومحمد بن مزين وابن أبي الفياض وأن يتوج هؤلاء بظهور ابن حزم
الفيلسوف الفقيه المؤرخ وصاعد الطليطلي مؤرخ الفكر الفلسفي . وأن
يظهر في الجغرافيا والرحلات الوراق والبكري.وأن يظهر في علم الحديث
أمثال قاسم بن أصبغ وابن القوطية وابو المطرف ابن فطيس وابن الفرات
ورزين بن معاوية العبدري وابو محمد الرشاطي وابن القرطبي المالقي
وغيرهم كثر . ولا نذكر القراء الكبار كأبي عمرو الداني والفقهاء
الكبار كأبي الوليد الباجي وابن عاصم . ولا علماء الرياضيات والفلك
كالزرقاني .غير أن أعظم علماء الأندلس الاسلامية وأخصبهم فكراً
هو دون شك علي ابن حزم . وهو أحد القلائل الذين تفردوا بالانتاج
العقلي الخصب. وقد تقلب في مدن الاندلسووزر لعبدالرحمن المستظهر
وينسبون إليه مايزيد على أربع مائة مجلد في التاريخ والفقه والحديث
والمنطق والشعر والعلوم ، والتعداد من بعد يطول، ولكنه إن دل على
شيء فانما يدل على أن مسيرة السياسة غير متوازية مع مسيرة الفكر ومع
مسيرة الاقتصاد إلى حد كبير .

وليستهذه على أي حال مجرد أسماء تمر في سجل التاريخ ولكنها
قمم أدبية ودينية وفكرية وراء كل منها سيرة واسعة وتاريخ حافل
بالانتاج والجهد والخصب ، ومن ورائها مئات الاسماء الأخرى تعد
المئات هي التي صنعت تراث الاندلس الباقي ولونه الحضاري الخاص
في اطار الحضارة العربية .

* * *

منذ الفتح حتى أواسط القرن الخامس ــ كان شمال إفريقية (من ليبيا حتى المغرب) ، موزعاً بين عدة ولاة دولة اسلامية وكان في أجزائه المقابلة للعدوة ولبحر الزقاق تابعاً لإمارة الاندلس ثم للخلافة فيها. وفيما كان بحران ملوك الطوائف في الأندلس كانت في المغرب الاقصى في أبعد أجزائه الجنوبية تتبلور حركة ضخمة هي حركة المرابطين. ويبدو أن ضعف القوى الاسلامية سواء في المشرق العباسي أو المغرب الأموي ، في تلك الفترة ، أغرى القوى البدوية التركية في المشرق والبربر في المغرب،وهي جميعاً جديدة الاسلام،وعلى مناطقه الهامشية البعيدة،للتحرك إلى داخل المنطقة الاسلامية وإلى مراكزها الهامة . وهكذا دخل السلاجقة ، بدوا وحضراً من السهوب إلى فارس والاناضول والشام في موجة غزو اسلامي واســعة ، ودخل المرابطون الذين تختلط في عروقهم بعض الدماء العربية إلى المغرب كله في وقت واحد تقريباً . لم يكن الإغراء دينياً فقط لانقاذ الاسلام من التمزق،ولكنه رغم المسحة الصوفية التي لبسها في المغرب كان ذا طابع اقتصادي واضح سواء في الانسياح وراء طرق التجارة أو في الاستيلاء على الغنائم في المدن الغنية .

وكانت الغزوتان عمليتي هجرة بشرية من جهة وحرباً اسلامية ــ اسلامية من جهة أخرى . وتفوقت القوى البدوية فاستولى السلاجقة على معظم المشرق والمرابطون على المغرب . واستكملوه بالنفوذ إلى الاندلس.

وكانت حركة المرابطين في الأصل أخوية دينية حربية نشأت في قبائل لمتونة في أقصى جنوب المغرب على حدود السنغال.وتزعمها بعد فترة من ظهورها بنو تاشفين الذين بنوا مدينة مراكش عاصمة لهم سنة ٤٥٥/

١٠٦٢ . فلم تزل كذلك حتى سقطت دولتهم واتخذوا لأنفسهم لقب إمرة المسلمين ، معترفين للخليفة العباسي بامرة المؤمنين .

إلى يوسف بن تاشفين (٤٥٣ — ٤٩٩/ ١٠٦١ — ١١٠٦) عاهل هذه المملكة القوية الجديدة وصلت بعثة الاستنجاد تضم قضاة بطليوس وغرناطة وعلى رأسها قاضي اشبيلية . واشترط العاهل أن يتسلم الجزيرة الخضراء قاعدة له. لكنه لم ينتظر الجواب فقداستصدر من الفقهاء فتوى بذلك . وتحرك بجيشه الكبير عابراً العدوة سنة ٤٧٩ / ١٠٨٦ وأقبل عليه المعتمد ،وجيرانه الأمراء مرحبين طائعين،في حين كان الفونس السادس يحاصر سرقسطة.وطلب إليه ابن تاشفين فك الحصار فأبى وتحرك نحوه حتى وصل بطليوس. ونشبت بين الطرفين معركة كبرى أنزل فيها أمير المرابطين أشنع الهزيمة بألفونس الذي لم ينج بثلاثمائة من فرسانه إلا بصعوبة تاركـاً وراءه من الجماجم ماكان يكفي لبناء مئذنة . وأرسل منها عبد المؤمن أربعين ألفاً عبر العدوة رمزاً لنصره .. هذه المعركة التي عرفت بالزلاقة (والتي وقعت في جمادى الآخرة سنة ٤٧٩ / تشرين الأول سنة ١٠٨٦) كانت كافية لأن تهز في الاندلس كلها الحمية الدينية . وتهز في الوقت نفسه عروش ملوك الطوائف تحت هؤلاء الملوك . وتجبر ألفونس على إخلاء اقليم بلنسية ورفع الحصار عن سرقسطة .

وما إن عاد ابن تاشفين إلى المغرب حتى عاد القشتاليون والسيد الكمبيطور إلى تهديد الإمارات الإسلامية وعجزت بقايا الجيش المرابطي عن ردهم فاستنجد جميع الأمراء مرة أخرى بابن تاشفين ! وغاد . ومنذ وطئت أقدامه هذه المرة أرض الاندلس تحولت هذه الدولة إلى

ولاية مغربية . واستمرت كذلك حتّى سقطت معظم مدنها بأيدي الفرنجة فلم يبق منها سوى مملكة غرناطة . ودفعت الأرض المغربية بعد المرابطين ، خلال ذلك ، بموجة أخرى هي موجة الموحدين تكمل عمل المرابطين .

استمر الحكم المرابطي ثم الموحدي للأندلس (١) مائة وثلاثين سنة كانت الأندلس خلالها ، رغم تبعيتها لمراكش العاصمة هي الاقليم الحضاري الموجه . في حين كان المغرب هو الاقليم الذي يتلقى تأثيراتها الحضارية القوية ويقدم لها الجند المحاربين . لكن تحول الاندلس إلى إقليم تابع لم يمنعه من أن يتابع مستواه الحضاري الذي وصله من قبل بالوتيرة ذاتها وربما بأقوى منها أحياناً نتيجة لتوحده مع المغرب وانفتاح الطرق والموانيء التجارية بأقصى قوتها لابين العدوتين فقط ولكن بين المغرب كله الذي سيطر عليه المرابطون ثم الموحدون وبين الأندلس الذي صار جزءاً من امبراطورية واسعة .

دخل ابن تاشفين ، في غزوته الثانية إلى الاندلس فاتحاً وبحجة الانجاد . كانت الحملة الأولى قد أقنعته وأقنعت مستشاريه وجنده بأنها أغنى بكثير من أن تترك. وبأن ملوكها أضعف بكثير من أن يقاوموا. وبأن التوسع لن يكلف كثيراً تجاه المكاسب الضخمة التي سيحملها إليه ضم الاندلس إلى امبراطوريته . كان ذلك سنة ٤٨٣/١٠٩٠ . وقد أنضم إليه مع جيش المعتمد في اشبيلية جيش امراء مالقة وغرناطة

---

(١) استمر حكم المرابطين جميعاً مابين سنتي ٤٤٨ – ٥٤١ / ١٠٥٦ – ١١٤٦) وحكم الموحدين مابين سنتي ٥٢٣ – ١١٢٩ حتى ٧٦٥ – ١٢٦٨ مع تداخل العهدين أحدهما مع الآخر سواء في المغرب أو الأندلس .

والمرية . ولم يكن ابن تاشفين واثقاً من تضامن هؤلاء الأمراء فتحاشى أولاً الاصطدام مع جيوش قشتالة في انتظار تطور الأمور .

كان الفقهاء والعلماء ذوو النظرة البعيدة والغيرة على الاسلام قد شكلوا بجانب المرابطين قوة ضاغطة على الامراء الضعاف واعتبروا التدخل المرابطي انقاذاً إسلامياً للدين . لهذا كان سهلاً على ابن تاشفين أن يحصل من قضاة غرناطة ومالقة على فتوى شرعية بعدم صلاحية ملوك الطوائف للحكم، وبأن تنحيتهم واجب ديني محتوم. وما عليه إثم في نقض العهود التي كان قطعها لهم بالحفاظ على عروشهم . كما حصل على الفتوى ذاتها من علماء المشرق كالغزالي . واكتسح الرجل معظم هؤلاء الملوك واحداً بعد الآخر . الوحيد الذي احتفظ بعرشه هو صاحب سرقسطة لعلاقته الطيبة مع الزعيم المغربي. ثم خسر ابنه هذا العرش حين مات الأب سنة ٥٠٣ / ١١١٠ . أما المعتمد صاحب اشبيلية والذي كان المتحمس للاستنجاد بقوة المرابطين. فقد كان أول الضحايا أيضاً له . فقد احتلت إمارته فيما أحتل وسيق هو نفسه مع أسرته إلى المغرب منفياً وسجن في أغمات ، في حال سيئة حتى توفى سنة ٤٨٨ / ٤٩٥ .

كانت الدولة المرابطية أول دولة يقيمها البربر . كما كانت حين بلغت أوجها أكبر دولة أقاموها وتمتد مما وراء الصحراء الكبرى ، في السودان الغربي حتى الجزائر ضامة إليها الأندلس . ولم يكن هذا الانسياح عسكرياً فقط ولكنه كان موجة بشرية من الهجرة وتحركاً بدوياً صحراوياً باتجاه المناطق الحضارية الغنية . وكان هذا يعني بالنسبة للأندلس الكثير . فقد أنتقل مركز الاهتمام السياسي إلى المغرب وجرى نوع من التبادل السكاني بينه وبين الاندلس، ففي حين كانت تحرك

الشعراء والمثقفين والطامحين إلى المناصب وجموع العلماء والموظفين تتجه نحو مراكش كانت جموع مقابلة من الراغبين في هناءة العيش والخصب والحضارة الرفيعة تتجه نحو الأندلس في حركة مقابلة مما أوجد في الحركة بين القطرين نشاطاً ملحوظاً قوياً .

وموجة الهجرة البشرية كانت في واقعها تعبيراً عن تزايد السكان البربر في المغرب ، وكان من آيات ومن أبرز آثار هذا التزايد كثرة بناء المدن الجديدة هناك ، أو تجديد المدن القديمة المندثرة . فقد أنشئت أو جددت ، في الفترة المرابطية الموحدية ، حوالي ستين مدينة من أصل خمسة وتسعين أقيمت في العصر الاسلامي في تلك البقاع . وكان هذا يعني نقلة واضحة من حياة البداوة والزراعة إلى حياة الاستقرار والتحضر وتزايد الحرف والتجمعات التجارية في المغرب .

على أن أهم مانجم عن الاحتلال المغربي للاندلس عدا ذلك هو فقدها لطابع التسامح الديني الذي ميز نظامها السياسي قبل ذلك . كان هذا التسامح ، في الواقع ، اعترافاً بغلبة العناصر المسيحية بين السكان عامة ونوعاً من الادارة الحسنة لأحوالهم والرعاية لمشاعرهم . فالمولدون والمستعربون كانوا الكثرة الغالبة وقد قام التعايش الطيب بينهم وبين العناصر الفاتحة . فلما جاء المرابطون كانت الكثرة في الاندلس قد أضحت للمسلمين ســـواء منهم العرب أو البربر أو المولدون . ولما كان المرابطون من قبائل بربرية جديدة عهد بالاسلام فقد كانوا شديديالتمسك به.لاسيما وأن حركتهم إنما كانت في الأصل حركة دينية متعصبة ، أسهم الفقهاء في بنائها وفي تصعيد أشواقها الصوفية . فلم يكن غريباً أن تكون كلمتهم فيها هي العليا وأن يكونوا العنصر الضاغط في السياسة

الداخلية والخارجية على السواء . فنقلوا تعصبهم معهم إلى الاندلس . ولم يكن هذا التعصب حرباً فقط على أي نزعة مهما قلت إلى التفرد الديني داخلياً ، ولكنه كان ، في الوقت نفسه ، حرباً على غير المسلمين بالقوة نفسها أو أشد . ولما كانت جبهة الشمال الاندلسي هي التي تمثل هؤلاء كما يمثلهم المستعربون كان بدهياً أن يقود المرابطون ذلك التعصب ضدها . وهكذا نجم عن ذلك سياسة واحدة ذات فرعين ، ولو أنها في الأساس واحدة : فرع للمسلمين يستقبح علم الكلام والتفلسف وفرع لغير المسلمين يستريب بهم ويحملهم مسؤولية كل هزيمة ، ومات التسامح التقليدي وحل محله تشدد في الدين ، ناجم عن المقولة التي قال بها الفقهاء،وشاعت بأن تدهور القوة السياسية ناجم عن عدم اتباع تعاليم الدين الحنيف وأن التمسك به هو سبيل النجاة . وقد سلمت الجماهير بها مما سمح للحكم المرابطي بدفع هذه الفكرة لدرجة المحاسبةلكل عالم على فكره.حتى الامام الغزالي أبو حامد الذي استقبل كتابه إحياء علوم الدين استقبالاً حسناً أول الأمر لما يثيره من توجهات إلى محاسبة النفس صار محل الاستياء بسرعة لأن فيه أقوالاً فسرت على أنها انتقاص للفقهاء ، ولقد أصدر قاضي قرطبة وزملاؤه فتوى شرعية أتهموا فيها هـــذا العالم المجدد بالبدع والمروق من الدين . فأحرق كتابه علناً في قرطبة وفي عـــدد من المدن الأخرى على مشهد من الجماهير . وفرضت عقوبة القتل على من يقرؤه .

زادت ، بعد وفاة يوسف ابن تاشفين سنة ١١٠٦/٤٣٩٩ ، نزعة التعصب الديني لأن ابنه علي الذي ورث العرش كان شديد الورع وخضع تماماً لأشواقه الدينية واتخذ خلال حكمه الطويل (٤٣٨/٤٩٩) من

الدين سياسة للدولة . وكما ثقلت وطأة رجال الدين على المسلمين ثقلت بالتالي أكثر من ذلك على غيرهم لاسيما وأن قسماً حسناً من المستعربين كانوا لايكتمون ترحيبهم بالغزوات النصرانية المتكررة على الأراضي الاسلامية . وكانوا بسبب معرفتهم بالعربية يقدم بعضهم العون لجيوش الشمال . وتنصب النقمة من ذلك على رؤوس الجميع . وقد حرموا أثناء الحكم المغربي من التقاضي أمام بني جنسهم(لدى القومس) . وعرفوا عدداً من القيود التي لم يتعودوها من قبل . مع أنهم كانوا قد استعربوا في اللغة والملابس و الكتابة وترجموا الاناجيل إلى العربية . وبقيت هذه اللغة لديهم لغة الثقافة والعلم والتجارة فترة طويلة بعد زوال الحكم الاسلامي . وقد أفتى فقهاء المرابطين سنة ٤٩٢ / ١٠٩٩ بهدم الكنائس المحدثة. وفي سنة ٥٢٠ / ١١٢٦ عرفت السلطات باتصال المستعربين مع نصارى الشمال فقتل عدد منهم.ونفي الباقون إلى المغرب . وتكرر ذلك سنة ٤٣١ حتى قل عددهم كثيراً في مدن الأندلس نتيجة الهجرة أيضاً إلى الأراضي النصرانية . ولعل هذه الأمور هي التي جعلت من السيد الكمبيطور (أو السيد) في مطالع العهد المرابطي أسطورة لدى المستعربين ولدى نصارى الشمال.وأعطته السمعة الواسعة بالبطولة والخلود في القصص . بل صار بطلاً قومياً حتى طلب له ملك اسبانيا بعد خمسمائة سنة أن يرسمه البابا قديساً . ومع أنه كان يتقلب في ولائه وكان هواه في الحرب لأي جهة كانت إلا أنه كان موضوع ملحمة شعرية تركت أثرها العميق في الفكر الاسباني وفي اللغة . كان الاسبان يرون فيه البطل المنتقم لعجزهم أمام الحكم العربي الاسلامي . وينسجون من حوله الاقاصيص تعويضاً عن الواقع .

وقد سقطت في رمضان سنة ٥١٢ / أواخر ١١١٨ سرقسطة في يد ألفونس الأول ملك أراغون وهي خط الدفاع الأساسي في الثغر الأعلى ومعقل الإسلام الأول في الشمال بعد أن كانت محل نزاع طويل بين الطرفين . وتبع ذلك الفونس بعد سبع سنوات بهجمة أوغلت نحو الجنوب تريد احتلال غرناطة. وهزم المرابطين هزيمة قاسية قرب مدينة اليسانة اليهودية — في رأي الأدريسي —.ومع أنه لم يوفق في غايته إلا إن فقهاء المرابطين بدلاً من أن يلقوا تبعة الهزيمة على أنفسهم وعلى إيثارهم الترف الأندلسي ألقوها على المستعربين واليهود . وفي حين فرضت فتوى قاضي اشبيلية على هؤلاء الأخيرين التعويضات التي تسد العجز المالي في خزانة الدولة فرض على الأولين الجلاء وأنزلوا في سلا ومكناسة في المغرب .

وقد مست النقمة اليهود كذلك . فقد تمتعوا منذ الفتح بالحرية الدينية ، وبوضع اجتماعي مميز.وارتفع مقامهم حتى بلغ بعضهم الوزارة مثل مثل حسداي بن شبروط أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم.فسهل نزوح المشرقيين منهم إلى الأندلس.وصارت قرطبة في عهده مركز الدراسات التلمودية.ومع ذلك كله فقد أضحوا موضع ريبة واتهام دائمين حتى إنها أغنياء يهود الأندلس وهم الذين كانوا يسكنون ويكثرون بلدة أليسانة اضطروا لدفع الجزية الكبيرة كي يسمح لهم بالحرية الدينية وبعضهم آثر الهجرة والهرب . بعد هزيمة المرابطين قرب بلدتهم سنة ٥١٩ .

لم تعمر دولة المرابطين طويلاً لأسباب عديدة على الرغم من سعتها البالغة :

١) فسياسة التشدد الديني لم تقترن بسياسة ناجحة للدولة في النواحي الاقتصادية.ولم يتنبه المرابطون وهم حديثو عهد بالادارة والحكم ورغم دخول العناصر الاندلسية في خدمتهم ، إلى المفاتيح الأساسية لسياسة الدولة وتنمية مواردها . حسبوا أن التعصب الديني والقوة الحربية اللتين أقامتا الدولة كافيتان لبقائها .

٢) ثم إن الامبراطورية التي شملت ماوراء الصحراء حتى الجزائر والأندلس كانت مفككة . وكان تنظيمها الداخلي أبعد ما يكون عن الاحكام والتماسك رغم سيطرتها على طرق التجارة المتحركة بين السودان وأوروبا الغربية

٣) فقدت هذه الامبراطورية بسرعة دعامتيها الأساسيتين الجيش والسمعة الدينية : فالجيش لم يعد بسرعة جيشاً محارباً . وهنت القوى الحربية فيه وانقلبت إلى الترف في الاندلس،وأصابها بسبب صدمة الحضارة المفاجئة نوع من الجشع إلى حياة الدعة والتراخي،مكنت القوى النصرانية في الشمال من تحقيق عدد من الانتصارات ضدها . ولعل أهمها سقوط سرقسطة : ثم إن سياسة التدين أصابها التراخي من جهة وضاق الناس بقيودها الشديدة من جهة أخرى فاضطرب أمر الدولة وأبغضت سياستها .

٤) وأخيراً فقد عاث جند المرابطين في البلاد بضراوة لا تقل عن ضراوة مرتزقة الطوائف. وانقلبوا إلى النهب الزراعي وفرض الإتاوات الثقيلة وجمع المال.في الوقت الذي كانت فيه موارد الناس تقل بسبب انقطاع خطوط التجارة مع الجنوب السوداني والمغرب عقب ظهور جماعة الموحدين وانسياحها باتجاه الشمال منذ سنة ٥٢٠ / ١١٢٦ بقيادة المهدي ابن تومرت .

وهكـــذا عم الاستياء من الحكم في حين شلت تحت ضغط هذه الظروف حركة العمل والتجارة، وتولي الحكم سنة ١١٤٣/٥٣٧ تاشفين بن علي فانصرف بكليته إلى دفع الخطر الداهم عليه من التحرك الموحدي في الجنوب .

وحركة الموحدين حركـــة سياسية دينية أشبه ما تكـــون بحركة المرابطين ولكنها اكثر جذرية منها . وقد نشأت كما نشأت الأولى في المناطق الجنوبية على الحـــدود بين المغرب والسودان وتشكل جيشها المحارب من العناصر البربرية المصمودية هنـــاك . . وتحركت نحو الشمال كالمرابطين . وفي سنة ٥٢٤ كانت تحاصر مراكش عاصمتهم ثم تكتسحها تاركة لزعيمهم المرابطي أن يحارب وهو يتراجع حتى شرقي الجزائر .

مؤسس الحركة محمد بن تومرت درس في المشرق.وتشبع من تعاليم الامام الأشعري في بغداد . ورجع إلى بلاده شديد الغيرة على تجديد الفكر الاسلامي مؤكداً في الدرجة الأولى جانب التوحيد في الدين — ومن هنا كسبت حركته اسمها — وداعياً إلى السنة وعقيدة السلف ورفض مفاهيم الفقه الرائجة التي تقول بالتجسيم ونسبة الصفات إلى الله ، والتي تقبل اجتهادات الفقهاء التشريعية. واتخذ لنفسه لقب المهدي ونزل يحارب الزائغين عن الدين في نظره معتبراً أنه وحده وجماعته هم الجماعة الموحدة الحقيقية والناجية والمؤمنة.وقد أرهق بجماعته المحاربة التي كانت تتكاثر باستمرار بين البربر جند الدولة المرابطية ودفعها إلى التراجع عن المغرب ككل وحتى تلمسان في بضع عشرة سنة .

لم تؤثر الحروب الأولى بين المرابطين والموحدين على تبعية الاندلس

للأولين . فقد احتفظوا بها ولو أنهم كانوا ينهزمون أمام الجيوش النصرانية كما يعجزون عن حسن الادارة ويضعفون . وقد كان في عزم ملك المرابطين حين حوصر في تلمسان سنة ٥٣٧ / ١١٤٣ سنة كاملة أن يلجأ إلى الأندلس واستدعى اسطوله من المرية ولكنه سقط من شاهق فيما كان يجتاز على جواده عقبة ضيقة مشرفة على البحر سنة ٥٣٩.في حين احتل الموحدون المدينة .كان ابن تومرت قد قضى منذ سنة ٥٢٤ / ١١٣٠ وحل محله صديقه عبد المؤمن بن علي وهو من أصل متواضع لكنه كان في الواقع مؤسس دولة الموحدين الحقيقي . وهو الذي استولى على باقي المغرب الأقصى بين تلمسان وفاس وسبتة وطنجة وأغمات من المرابطين الذين أخذوا يديرون الملك خلف فتى يافع لم يتأخر عبد المؤمن حين حظي به عن ضرب عنقه رغم انتحابه أمامه لينهي بذلك عهد المرابطين .

وقعت الاندلس خلال ذلك في الفوضى السياسية ولم يختل فيها الأمن فقط وتعلو الشكوى،ولكنها عادت إلى عهد ملوك الطوائف . وظهرت فيها عدة دويلات صغيرة كانت أعجز من أن تقف للحركة النصرانية المتحفزة.ووجد عبـــد المؤمن أن عليه ، لتكامل التجارة والطرق والحكم في العدوتين أن يجتاز بحر الزقاق إلى الاندلس على الرغم من أنه لم يكن قد استوفى بعد التوسع لامتلاك الطرق التجارية مابين الجزائر إلى أقصى شرقي ليبيا وهكذا أمر بمسيرة الجيش إلى الأندلس . وكان الانتصار على القوى المرابطية والمحلية فيها صعباً لأن قوى الجيش الموحدي كانت موزعة بعد معارك كان بعضها دامياً . ولكن الفتح تم دون صعوبة في الأجزاء الغربية والوسطى . وسارع أمراء هذه المناطق دون كبير مقاومة إلى اعلان ولائهم وانضمامهم للموحدين . وكانت ولاية شريش البحرية

في الجنوب في طليعة هذه الولايات لعلاقاتها الاقتصادية الواشجة مع المغرب . ولذلك سمي أهلها بالسابقين الأولين . وصاروا مقدمين على غيرهم في التشريعات الملكية بالعاصمة مراكش .

وانضم إلى الموحدين بعد سنة من ذلك أي سنة ٥٤٠ أمير البحر ابن ميمون الذي كان قد استقل في قادس . ثم انضمت اشبيلية.وسافر وفد من أعيانها للمبايعة . غير أن الاقسام الشرقية استعصت وعارض أمراؤها فكرة العودة للوحدة مع المغرب . واستقلوا بإماراتهم . ومنهم مدينة المرية التي استقل بها أهلها من رجال الاسطول (القطائع) وغزاة البحر وكونوا فيها إمارة بحرية مستقلة وصاروا يغيرون منها على الشواطيء في اسبانيا وفرنسا من ايطاليا . حتى تكالبت عليها اساطيل برشلونه وجنوا وبترة ومونبلية بالاضافة إلى جيوش قشتالة وقطلونية ونافارا وجليقية واشتوريس فحاصرتها ثلاثة أشهر . ثم احتلتها عنوة سنة ٥٤٢ . وسلمتها إلى ألفونسوا السابع الملقب بالسليطن . غير أن هذا الاحتلال الصليبي لم يدم سوى عشر سنوات ثم حررها الموحدون سنة ٥٥٢ . وتمرد بنوغانية عمال المرابطين في جزر البالبار وقاسى منهم الموحدون الكثير قبل أن ينتصروا عليهم. واستقل كذلك ابن مردنيش في بلنسية ومرسية. غير أن الامارة مالبثت أن وجدت مصلحتها في الانضمام للموحدين بعد موت صاحبها.وصار أولاده من كبار قادة الاسطول الموحدي .

قضى عبد المؤمن خمس سنوات حتى استطاع تدويخ الأندلس كلها واستردادها إلى الامبراطورية . فلم يبق لبقايا المرابطين إلا جزر البليار وكانت قوة تجارية وبحرية ربطت أسبابها بأفريقية (تونس) . وقد حاول بنو غانية الذين يحكمونها أن يستولوا

على الشواطىء الجزائرية التونسية ويقفوا للموحدين في مملكة بحرية تسيطر على التجارة. ولكنهم لم يلبثوا هم والجماعات النورماندية معهم سوى بضع سنين. ثم استطاع عبد المؤمن أن يسير جنده إلى شرقي الجزائر سنة ٥٤٧ ثم إلى تونس بعد سنتين ثم إلى ليبيا سنة ٥٥٥ / ١١٦٠ موحداً بذلك لأول مرة جميع المغرب العربي ، بعد الفتوح الاسلامية الأولى ، تحت حكمه في امبراطورية لم تعرف هذه البلاد أكبر منها من قبل. وتمتد من حدود مصر إلى شواطىء المحيط الاطلسي وتضم إليها في الشمال الاندلس .

على أن الدولة النصرانية الناشئة في غرب الاندلس كانت قد اقتطعت جانباً منها . ففي سنة ٥٤٢ / ١١٤٧ . استطاع ملك البرتقال (البرتغال) أن يستغل مرور حملة صليبية ثانوية ببلاده ذاهبة إلى المشرق . فاستأجرها لمعونته على احتلال أشبونة (لشبونة) التي غدت فيما بعد نواة دولة البرتغال. ولم يستردها الموحدون بعد ذلك . لكنهم كانوا اكثر توفيقاً مع ملك قشتالة ألفونس السابع الذي توغل بجيشه في الاندلس حتى انتهى إلى قرطبة فصدوه هناك وأجبروه على التراجع . ونجح التحالف النصراني إلى حين في احتلال المرية .

ومن الملاحظ أن دولة المرابطين واكبت قيام الحروب الصليبية ضد المشرق الاسلامي حتى أواخر عهد زنكي والد نور الدين . وقد صارت السيطرة على البحر المتوسط في تلك الفترة لقوى الغرب الفرنجي والنورماندي . ولذلك عني المرابطون والزيريون الذين عاصروهم في تونس ببناء الرباطات على السواحل الافريقية والمغربية دفاعاً عنها . وتخلوا تقريباً عن خطط الهجوم السابقة ونتيجة لذلك غدت كلمة مرابط

أشبه بالوسام لمدعيها . لأنها جهاد في سبيل الله . أما الموحدون فقد عرفوا كيف يقيمون قوة بحرية تكفي للدفاع البحري ولمتابعة تسيير العلاقات التجارية بين المغرب والاندلس . وعلى الرغم من الطابع الديني الذي اتسمت به دولة الموحدين فانها اكتفت بالدفاع عن مناطقها ضد الحركات الصليبية . ولم تشترك في الدفاع عن المشرق رغم استنجاد صلاح الدين(١) بها ولكنها بذلت جهدها في الغرب للوقوف في وجه الصليبيات كما فعلت في حصار المرية سنة ٥٥٢ وفي حصار المهدية ضد النورمنديين سنة ٥٥٥ ستة أشهر . وكانوا قد احتلوها سنة ١١٤٨/٥٤٢ . ومع ان جيش الموحدين البري كان عمادهم في التوسع إلا إن أسطولهم البحري كان عماد الربط بين العدوتين تجارة وحرباً ولذلك جعلوه أقوى أسطول في غربي المتوسط حتى لقد بنت دور الصناعة سنة ٥٥٧ / ١١٦٢ أربعمائة قطعة فيما بين وهران إلى الاندلس .

ولم يهمل الموحدون عمليات الدفاع عن الثغور المختلفة فأنشأوا المزيد من القلاع والرباطات ذات المناور وابراج المراقبة احتياطاً من غزوة صليبية مفاجئة بسبب طول شواطئهم على المتوسط والأطلسي.ومن ذلك رباط الفتح (مدينة الرباط) ثم مدينة الفتح المواجهة لجبل طارق. عدا مدن أخرى انشئت في عهدهم بعضها في الأندلس ومعظمها في الشمال الافريقي . وإذا كان هذا التزايد في المدن يدل على نمو الحرف وعلى التزايد السكاني،فانه يدل في الوقت نفسه على الغنى التجاري أيضاً واستقرار الأمن . والواقع أن سياسة الموحدين كانت تقوم على مبدأ احترام قوانين التجارة الدولية وضمان السلام والطمأنينة في البحار حتى

(١) يقال إن الخليفة المنصور جهز ١٨٠ سفينة لمعونة صلاح الدين ولكنها لم ترسل .

لو كان من يهددها من المسلمين . ويكفي أن نشير إلى الغارة التي شنها أبويعقوب يوسف على وكر القراصنة الذي كان يديره الثائر عبد الله بن عبيد الله في منطقة (الغارقة) في غربي الاندلس ، بعد أن ظل مابين سنتي ٥٤٦ وآخر سنة ٥٦٣ ينهب أموال التجارة وسفنها نصرانية كانت أم مسلمة .

كان عبد المؤمن على عزم غزوة كبرى لدول الشمال النصراني يستعد لها في شواطىء المغرب سنوات حين دهمه الموت سنة ٥٥٨ / ١١٦٣ وقام على الحكم ابنه أبو يعقوب يوسف (٥٥٨ — ٥٨٠ / ١١٦٣—١١٨٤) وحارب الجيش الموحدي في عهده دول الشمال كالقطلانيين.لكن معظم معاركه كانت مملكة البرتغال الناشئة في الغرب . فقد كانت أشد الممالك وطأة على المسلمين لأنها تقتطع الشواطىء الجنوبية على الأطلسي بين الاندلس والمغرب.ولأنها المعبر الهام إلى قلب قشتاله . استغرقت هذه المعارك وقتاً طويلاً واضطرت أبا يعقوب إلى بناء التحصينات والقلاع ضد غارات البرتقال على طول الوادي الكبير . وبنى جسراً من السفن عظيماً على هذا الوادي لتعبره الجيوش المتحركة من اشبيلية إلى بطليوس المهددة.وتحصنت اشبيلية نفسها بسور حصين وأقيمت فيها دار للسفن . ولم تكن المعارك حاسمة،ولكنها كانت سجالاً بين الطرفين سواء في البر أم البحر . حتى إذا كانت سنة ٥٨٠ / ١١٨٤ وكان الملك الموحدي بنفسه في معركة عند شنترين يحاصر قلعتها خرجت عليه حامية القلعة وجنده في اضطراب فأصابته بجراح مميتة !

كان لموت أبي يعقوب المفاجىء هزة اضطراب شملت كل امبراطوريته،وقد استغلتها القوى المناوئة في الجوانب المهددة منها . ففي

حين وثب بنوغانية في جزيرة ميورقة (من الباليار) على اسطوله فأخذوه ثم هاجموا سواحل الجزائر وتونس وأخذوا بجاية وقابس ، انتهز البرتغاليون مرة أخرى مرور أسطول صليبي من خمسين سفينة بلشبونة سنة ٥٨٥ / ١١٨٩ عليها محاربون من الألمان والفلمنك (وكثيراً ما كانوا يمرون في هذه الفترة بسبب تحريض البابوية ورجالها للأوروبيين اثر فتح صلاح الدين للقدس سنة ٥٨٣ / ١١٨٧) فاستأجرهم سانشو الأول ملك البرتغال لاحتلال مدينة شلب التي اضطرت للاستسلام بعد أن قطعت عنها المياه .

استمرت هذه النكسة عدة سنوات استجمع خلالها أبنه أبو يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠ — ١١٨٤/٥٩٥ — ١١٩٩) كل القوى واستنفرها. ولما لم تكن نكسة الدولة ناجمة عن ضعف في المواردأو اضطراب في التنظيم الاداري وكانت أزمة طارئة عابرة فقد كان من السهل على العاهل الجديد أن يتجاوزها ويعيد الدولة مسيرتها الأولى . فقد أعاد الوحدة المغربية بانتصاره على بني غانية في المغرب واستطاع اجتذاب الحملة الغزية التي وصلت من مصر بقيادة قراقوش وأدخلها في خدمته.ثم انصرف إلى إتمام مشروع أبيه في جهاد الممالك الاسبانية المعادية وبخاصة منها دولة البرتغال الناشئة وأمها قشتالة . ووفق في ذلك توفيقه في المغرب .

كانت خطته أن ينفرد بممالك النصارى واحدة إثر أخرى فتحالف مع ملكي قشتالة وأراغون سنة ٥٨٧ / ١١٩١ ليحارب ملك البرتغال . ثم تحالف مع ملكي ليون وأراغون لينفرد بملك قشتالة . وهكذا استرد مدينة شلب من البرتغال وانتصر عليهم براً وبحراً فلم تقم لهم قائمة في عهده . ثم انتصر على قشتالة في قلب اسبانيا وهزم ملكها الفونسو الثامن

عند حصن الأرك سنة ٥٨٩ / ١١٩٣ هزيمة رنانة وأعقب ذلك بسلسلة من الانتصارات الأخرى في الشمال خرب فيها أرباض طليطلة واستولى على حصون مجريط (مدريد) ووادي الحجارة وعلى أراض لم تطأها أقدام المسلمين منذ أيام المنصور بن أبي عامر قبل مائة سنة . . . وصارت للمنصور صورة تضاهي صورة الناصر صلاح الدين في المشرق .

لكن لم يطل عهد المنصور سوى خمس عشرة سنة وقد توفى سنة ٥٩٥ / ١١٩٩ فكان لوفاته حزن عميق لأن الناس كانوا يأملون أن يعدل بقيادته ماخسروه في المشرق من معاودة الصليبيين نشاطهم في آخر عهد صلاح الدين ومن بعده ! ويتوسمون فيه الكثير في الاندلس .

جاء الناصر محمد بعد أبيه المنصور (٥٩٥ — ٦١١ / ١١٩٩ — ١٢١٤) فجعل همه الأول مرة أخرى وحدة المغرب لأن بني غانية عاودوا التمرد والسيطرة على الحوض الغربي للمتوسط . كانوا يكسبون بأسطولهم البحري الكثير. ويطمحون إلى السيطرة على مرافىء تونس والجزائر لتكون مصبات التجارة السودانية تحت نفوذهم. ونجح اسطول الناصر وقواه التي ترفدها المملكة الواسعة في احتلال جزر الباليار . ثم انصرف كأبيه وجده من قبل إلى جهاد الممالك النصرانية في اسبانيا . كان ذلك قد أصبح عادة وهماً دائماً . أليس يمنح الشرعية ويرضي في الوقت نفسه الضمير الديني ؟

ومن الهام أن نلاحظ هنا أن حدود الدولة الأندلسية التي كانت تصل في عهد الخلافة أيام الناصر والمنصور حتى وادي نهر دويرة وتتصل مع حوض نهر إبرو تقلصت في عصر ملوك الطوائف حتى مجرى نهر آنة ؛ وفي عصر المرابطين والموحدين لم تتعد الحدود ، رغم جهودهم وحروبهم

وانتصاراتهم — ومعظمها كان دفاعياً — حوض نهر الوادي الكبير أي الخط الدفاعي الثالث والأخير عن الاندلس(١) إلا في الناحية الشرقية المطلة على البحر المتوسط وعلى الصلات القوية مع المغرب وتونس والاساطيل الاسلامية . فهذه المنطقة ظلت كاملة في أيدي المسلمين فيما عدا سقوط سرقسطة منها سنة ٥١٢ / ١١١٨ ، أيام انهيار معظم الساحل الشامي أمام الصليبيين . فخلاصة العمل المرابطي — الموحدي في الأندلس كان عملية دفاع عن بقاياها عامة والحفاظ على ما انتهى إليه كيانها آخر عهد ملوك الطوائف .

كانت أقسى حملات الناصر تلك التي كانت سنة ٦٠٧ / ١٢١٠ ضد ملك أراغون . أوقع المحاربون بجيشه البري واسطوله البحري أوحش فجيعة . غير أن الظروف العامة لاسبانيا وأوروبا كانت قد تغيرت بتدخل البابوية التي حز في نفسها فشل الحملة الصليبية الرابعة على المشرق وانتهاؤها في القسطنطينية ولمصلحة البندقية بدل انتهائها في القدس أو مصر ولمصلحة الصليبيين المحتلين .

سرت دعوة البابا ابنوست الثالث في أوروبا . فجاءت اسبانيا جيوش جرارة من متطوعي ألمانيا وايطاليا وفرنسا . وقام تحالف صليبي يضم جيشي الأراغون ونافار بملكيهما . وقوى البرتغال مع فرقة من الداوية ، صليبيي المشرق . وعلى رأس الجميع ملك قشتالة ومعه بعض الصليبيين الفرنجة . كانت الجبهة المعادية واسعة اضطر معها الناصر أن يجمع لها معظم جنده في الأندلس يدفع بهم إلى المعركة التي يسميها

---

(١) كان خطا الدفاع الأول والثاني في الثغرين الأعلى (سرقسطة) والأدنى (طليطلة) قد سقطا من قبل في سنتي ٥١٢ و ٤٨٧ هـ .

العرب واقعة العقاب ويسميها الاسبان لاس نافاس دي تولوسا سنة ٦٠٩ / ١٢١٢ وكانت كارثة حاسمة لم تفقد الخليفة الموحدي جيشه كله الذي كان — فيما يبالغون — ستماثة ألف لم ينج منهم سوى ألف واحد ، ولكنها أفقدت الامبراطورية الموحدية ، ومن وراء ذلك المسلمين معظم الأندلس وإلى الأبد . ذلك أن الخط الدفاعي الثالث في الجنوب وهو الوادي الكبير انهار بما عليه من عواصم كبرى مثل قرطبة واشبيلية . وانسحب المسلمون إلى جبال شلير الثاجية (سييرا نفادا) في الجنوب الشرقي يتحصنون بها .

هكذا ، في حين تقلص النفوذ الموحدي جداً بفقد الناصر معظم قواه في الاندلس،وانكفائه إلى المغرب.تناهب المتحالفون النصارى مع بعض صغار الامراء المسلمين ذلك الإرث كله . وحين توفي الناصر بعد ذلك (رجب سنة ٦١١ / أواخر سنة ١٢١٣) كان قد تنازل عن الملك جميعاً لابنه المستنصر الذي حكم عشر سنوات ضعيفة وتوالى من بعده ثمانية خلفاء من ذرية عبد المؤمن انتهوا بتسليم الحكم بعد خمسين سنة (١٢٦٩/٧٧١)إلى موجة بربرية بدوية ثالثة من قبائل زنانة ااقتصر نفوذها مع السودان على المغرب وجواره بتزعمها بنو مرين .

خلال الفترة التي أمتدت مابين دخول القوى المغربية إلى الأندلس (٤٧٩ / ١٠٨٦) وخروجهم منها (٦١٠ / ١٢١٣) تابعت الأندلس دورها الحضاري كاملاً سواء بالنسبة للمغرب أو بالنسبة لأوروبا فقد كانت البؤرة الحضارية المضيئة بين الطرفين .

ولم تختلف عوامل التكون السكاني ولا عوامل الآلية الاقتصادية الاجتماعية ولا الثقافية التي تحرك المجتمع الاندلسي في هذه الفترة

المرابطية ــ الموحدية ، سواء في أسسها التكوينية أو في وتيرتها أو علاقاتها عما كانت عليه في الفترات السابقة إلا أن يكون ذلك في الاندماج السكاني المتزايد نتيجة التعايش أو في التوسع والاتقان نتيجة التطور الطبيعي وتراكم الخبرة وزيادة الترف . أو في دخول عناصر جديدة على الحياة العامة . فقد دخلت الاندلس مثلاً صناعة الورق ، وكان قبل ذلك يستورد . وتوسعت زراعة النخيل والبرتقال والكتان والقطن وازدادت صناعة النسيج اتقاناً كما أتقنت صناعة المعادن المختلفة وامتازت خاصة عدة الحرب من سيوف ورماح ودرق وصناعة النسيج الفاخر ومصنوعات البذخ والخزف والطرب من حلي وعطور وآلات وآنية مع توسع الترف والتحضر وتوفر الإمكان المادي . وزخرفت هذه الاعمال بمختلف الزخارف دون أن نذكر الروائع من أعمال البذخ. كل ذلك سمح للاندلس بأن تستمر في دورها الحضاري الرائد بين الجناحين الأوروبي والمغربي باعتبارهما أقل حضارة، وبالمستوى نفسه إن لم يكن بمستوى أعلى من التحضر والترف .

كان تأثير الأندلس في أوروبا بطيئاً طويل المدى . أما في المغرب وبخاصة في عهد المرابطين والموحدين فيمكن أن نقول إن الاندلس ــ دون أن تفقد شيئاً من تألقها ــ انتقلت بحضارتها إلى المغرب . كانت تأثيراتها العمرانية والثقافية والفنية تتوالى. وتظهر على الضفة المغربية بوضوح لأنها المنطقة الأضعف حضارياً . وقد اتجهت إليها رحلات العلماء والشعراء والفنانين والبنائين والمهندسين والطامحين إلى الوظائف والإحاطة بالبلاط بالاضافة إلى التجار والحرفيين . وإذا كان المرابطون والموحدون قد منحوا الأندلس القوة المادية العسكرية فقد منحتهم بالمقابل القوة الحضارية والمدنية التي كانوا يفتقدون . ظهر ذلك واضحاً

في عدد المدن التي انشئت في المغرب في تلك الفترة والتي تزيد على العشرين ومنها الرباط والفتح و مراكش وغيرها .

ومن الملاحظ أن الاتجاه إلى المغرب عامة رافقه حركة نزوح أيضاً إلى تونس والمشرق فقد كانت النزاعات السياسية والأزمات الاقتصادية التي كثيراً ماتصيب الأندلس تدفع الكثيرين إلى النزوح . ففي تونس والاسكندرية ومكة والقدس ودمشق بل وفي بغداد وماوراءها أيضاً قامت جاليات مغربية واندلسية منذ القرن الخامس كانت دوماً موضع احتفاء . وكان يطلب إلى العلماء من هؤلاء الحديث عن أخبار المغرب وعلمائه بل يطلب إليهم التأليف في ذلك . وثم كتب عديدة ظهرت في المشرق لعلماء المغاربة والاندلس تتحدث عن رجال القلم والسياسة لديهم . ومن هؤلاء أبو بكر الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملوك وابن سعيد صاحب كتاب المغرب في أخبار المغرب .

ونشطت في الوقت ذاته كتب الرحلات التي تدل دلالة واضحة على مدى تشوق المغاربة إلى معرفة كل شيء عن المشرق . ولم تكن تصف مناسك الحج فقط – وإن كانت تركز عليها – ولكنها تصف كل شيء يراه الرحالة في كل بلد . وأمثلة ابن جبير الحميري وأبي حامد الغرناطي وبنيامين التطيلي (اليهودي) كافية للدلالة على ذلك . وإذا كان بعضهم يعود إلى بلاده فبعضهم استقر ومات في المشرق . كالمؤرخ ابن سعيد والنباتي ابن البيطار ومحي الدين بن عربي الصوفي المعروف وأبي بكر الطرطوشي . وقد زادت نسبة المستقرين حين بدا في الأفق الحربي أن الاندلس في خطر . ثم ازدادت وتيرة النزوح حتى بلغت أوجها بعد انهيار الحكم الموحدي في الاندلس .

وكان الفرق واضحاً بين الرحلات المبكرة التي كان الغرض منها الحج أو طلب العلم وبين الرحلات المتأخرة التي كان الغرض منها الاطلاع أو الهرب أو الاستقرار الآمن . وكانت الحركة بعامة في القرون الأربعة الأولى تميل إلى العودة للاندلس في حين كانت في الفترات المتأخرة تميل إلى الهجرة منها . كما كان الغرض العام من الرحلات الأولى الاستفادة من علم المشرق في حين كان الغرض من الرحلات المتأخرة بالعكس إفادة أهل المشرق كرحلة ابن زهر والباهلي وابن العربي وغيرهم . وقد رافق اليهود هذه الرحلات المتجهة إلى الشرق حين سمعوا بتألقه ورواج تجارته وتقبل العلماء فيه . ومن أبرز هؤلاء ابن ميمون وتجار الكارم الذين كانوا من أبرز التجار بين الهند وأوروبا .

هذه الحركة السكانية كانت في الواقع توحد الحركية الاقتصادية وتتأثر في الوقت نفسه بها. كما كانت تنسج الخلفية الموحدة للثقافة العربية الاسلامية وتوحدها دون انقطاع ، لا بين الاندلس والمغرب فقط ، ولكن بين المشرق والمغرب أيضاً . وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية بدأت بنزع أيدي المسلمين عن البحر المتوسط ، إلا ان حركة التجارة والرحلة الاسلامية حتى على السفن الأوروبية لم تنقطع . بالاضافة إلى أن حركة القوافل على طول الساحل المغربي حتى مصر كانت دوماً مستمرة ونقل البضائع بين الطرفين قائماً على الدوام . لأنها رغم المصاعب البرية كانت أكثر أمناً من ركوب البحر « الفرنجي » وفي تلك الأوقات .

وإذا كانت بضائع التجارة لم تختلف كثيراً في الفترة المرابطية — الموحدية عما قبل إلا في التوسع وبخاصة مع السودان ، فان الاعمال الحرفية القائمة على الفنون الفرعية والعملية والأعمال العمرانية

هي التي أخذت منتهى تطورها في هذه الفترة بتراكم الخبرات وتنافسها وتوفر الموارد المالية لمساندتها والانفاق عليها . وفي المتاحف نماذج رائعة الجمال للأعمال الفنية المعدنية من صناديق وسيوف وأسرجة وللخزف والورق والنسيج والعاج والزجاج وغيره تكشف مدى النشاط الاقتصادي الاجتماعي في تلك الفترة .

وقد عرفت طليطلة واشبيلية بصنع الآلات المعدنية كالسيوف والدروع والمزاليج والاسطرلابات والخناجر.وتعتبر سيوف طليطلة أجود السيوف بعد التي تنتجها دمشق . وكانت الاندلس تصنع الاسطرلابات التي ابتكرها المسلمون لتعيين مدى ميل الشمس على الافق ومواقع النجوم .

وعرفت قرطبة وغيرها بصناعة الأواني من النحاس والصفر والبرونز والذهب كالطسوت وصفائح الأبواب والثريات والأقداح والتماثيل والمجامر والقدور المزخرفة بزخارف نباتية وحيوانية ، والأسرجة والثريات والتحف الفضية وزجاجات العطور ومختلف الحلي ذات الصياغة الدقيقة. ولم يعن الاندلسيون بزخرفة المعادن . وانصرفت عنايتهم – كما في المشرق – إلى أطلية الخزف. وكانت بلنسية هي مركز هذه الصناعة التي قلدت في عدد من بلاد أوروبا بعد ذلك . ومن إنتاجها الآجر والخزف الملون ذو البريق المعدني وكان يضاهي الصيني والشرقي في الجودة والأناقة الفنية . ولحقت بها منذ أواسط القرن الخامس / ١١م قرطبة وطليطلة ثم مالقة وقلعة أيوب وبلنسية . وكانت هذه البضاعة تجد طريقها إلى المشرق وإلى أوروبا على السواء . وبرزت الاندلس بصناعة النسيج النفيس من الحرير أو الكتان وكانت أنوال قرطبة مشهورة بها .

كما كان في المرية أربعة آلاف وثمانمائة نول. وكان انتاجها أيضا هي الدبيقي المشرقي وصناعة دمياط وتنيس . وبلغ من شهرة هذه الأنسجة أن النماذج النسيجية المبكرة في أوروبا كانت تقلدها حتى في الكتابة العربية عليها .

واشتهرت الأندلس بحفر الخشب والعاج.ومنها نماذج غديدة ماتزال محفوظة كالعلب والصناديق وحشوات الأبواب والمنابر وعليها رسوم من أوراق النخيل أو الغزلان أو بعض الطيور والطواويس . وعرفت الاندلس صناعة الورق منذ أواسط القرن السادس / ١٢ م . جاءت الاندلس من المشرق عن طريق المغرب وسرعان ماانتشرت لتواكب حركة التأليف وتكفي الحاجة المتزايدة إلى نسخ الكتب . وقد سمحت هذه الصناعة التي اتسعت بسرعة باقامة المكتبات الضخمة في القصور ولدى الناس وبتسطير التآليف الموسعة ونشرها . ومن الأندلس انتقلت صناعة الورق إلى فرنسا ثم الغرب الأوروبي كله .

هذه المصنوعات الاندلسية لم تكن فقط للاستخدام المحلي . وكان الكثير منها يصدر ويصبح من مواد التجارة وموارد البلاد . وقد بلغ تكاملها أوجه القرن السادس / ١٢ م الذي يمكن أن يعتبر قرن النضج الأخير للحرف الاندلسية والتوسع الأخير للحركة التجارية. وقد بلغت موارد الدولة من هذه وتلك المبلغ الذي مول الحروب المتصلة التي قام بها المرابطون والموحدون ضد الممالك النصرانية والتي بلغت في النهاية حد تجنيد ٦٠٠ ألف جندي في المعركة الفاصلة الأخيرة معركة العقاب. ومهما يكن في هذا الرقم من المبالغة فانه يبقى رقماً يعجز الموارد إن كانت ضيقة محدودة .

ولا تتجلى وفرة الموارد المرابطية — الموحدية في تمويل العلميات الحربية فقط ولكنها تتجلى أيضاً في العمليات العمرانية التي تمت في ذلك العهد . وقد برزت فيها بجانب المدن العديدة التي أنشئت والمراصد والمحارس والقلاع أعداد من النماذج العمرانية الرفيعة تدل على مدى ماوصلته هندسة البناء من تكامل ودقة وزينة .وعلى الرغم من أن جميع معالم الفنون الدينية قد اندثرت في الاندلس نتيجة أعمال التعصب ومحاكم التفتيش التي أعقبت انهيار الدولة العربية الاسلامية نهائياً هناك . فلم يبق إلا بعض المساجد الضخمة ،فان الكثير من المباني المدنية كالقصور والقلاع كان حظهـا أوفر في البقاء . ويلاحظ على هذه الاعمال العمرانية، الاندلسية ، من خلال مابقي منها قائماً في المغرب وفي الأندلس:

١ — أن عددها على الجانب المغربي كان أكثر . كما كانت زخرفتها أوفر . وذلك طبيعي مع انتقال مركز الحكم وثروته وموارده إلى المغرب ، ومع القلة التي كانت تتسم بها المباني فيه من قبل ، سواء في المـدن أم في الجوامـع الكبرى أم القصور والقـلاع والأسوار . ويلاحظ أن هذه القلة في المباني الدينية والعمليات العمرانية والتحصينات بخاصة إنما كانت ناجمة من قبل عن قلة السكان النسبية ،وتخلفهم الحضاري ، وعدم وجود تهديدات نصرانية لهم عبر البحر من الشمال ،لقيام الاندلس القوية حاجزاً بينهم وبين الممالك هناك،ولضعف الممالك وبخاصة في الاساطيل البحرية من تجارية وحربية . فلما ضعف الحاجز الاندلسي وتزايد السكان وقوي بالمقابل العدو الشمالي وقلم التماس المباشر معه اضطر المرابطون ثم الموحدون لحراسة شواطئهم بالأربطة وبالقلاع والمراصد ، ولحماية مدنهم بالأسوار ، وتطوير تجارتهم بالمرافىء

الآمنة . بالإضافة إلى إظهار حضارتهم وغناهم ببناء القصور الفخمة والجوامع والمدارس وما إليها والاستزادة منها .

٢ — استخدام الأقواس المزدوجة والأقواس المفضضة ذات الشكل النعلي . وإذا كانت الأولى ناجمة عن استخدام مواد البناء من الابنية القديمة والأعمدة الرفيعة القصيرة ، فان الثانية بدورها وظيفتها أن تزيد في ارتفاع السقف ليتناسب مع الضخامة والسعة . وقد برع المهندسون المعماريون في الاندلس في استخدام هذه الآلات فليس من بناء إلا وفيه نماذج منها وعليها ألوان الزخرف المتناسب مع تيجان الأعمدة . وكان جامع قرطبة يقوم سقفه على غابة من الأعمدة كثيفة تبلغ عدتها ١٢٩٠ عموداً .

٣ — تزيين سطوح الجدران. فكما اتجهت صناعة الخزف والمعادن والعاجيات إلى الطلاء الخارجي كذلك اتجهت إلى أعمال البناء إلى تزيين ظاهر الجدران فكان تزيينها بزخرفة ظاهر سطوحها بمختلف الزخارف من هندسية متداخلة وكتابية ومقرنصات وتزيينات نباتية وصور حيوانية . موشحات أحياناً من الحياة العامة كمناظر الصيد وحفلات الغناء . فكأنها وبمشاهد من البناء كما كان ثم موشحات في الشعر والغناء .

٤ — استخدام التذهيب لوناً من الألوان . ولعل المباني الأندلسية أكثرت منه للدرجة التي جعلت بعض مفكري الغرب (مثل اشبنغلر) يعتبر التذهيب لون الحضارة العربية . ولعله استخدم كثيراً نتيجة البذخ أو للدلالة عليه . كما استخدمت في الزخارف الكثيرة المترفة ألوان من الرخام والجص في سخاء بالغ وإسراف عجيب مع الألوان البنفسجية والأرجوانية والبرتقالية .

٥ ـ استخدام الحدائق في داخل الأبنية ومن حولها فهي جنة أزهار حتى في الجوامع كجامع قرطبة الذي زرعت باحته الخارجية بالأشجار.وأباح لها المذهب المالكي ذلك . وللزهور والرياحين وما إليها دورها العميق في الحياة الأندلسية العامة . يتبين ذلك في الشعر كله وفي اختصاص بعض الشعراء (كابن خفاجة) شاعر الطبيعة في ترصيع شعره بالنباتات والزهور بل يتبين أيضاً في أسماء الكتب التي لايكاد لايخلو معظمها في تسمية من أسماء الزهور .

ومن أبرز الآثار الاندلسية في عهد المرابطين والموحدين القصر (الكازار) في اشبيلية الذي بناه لعامل الموحدين مهندس عربي من طليطلة سنة ٥٩٦/١١٩٩ ـ ١٢٠٠ ولم يكن بين قصور الاندلس الشهيرة في قرطبة وطليطلة مايضارعه شهرة سوى الزهراء والزاهرة.ولكنهما اندثرا بالفتن فلم يبق قائماً سواه . وثم أيضاً جامع اشبيلية الذي بني مابين سنتي ٥٦٨ ـ ٥٩١ والذي نراه اليوم ماثلا ببنائه في كنيسة سان ماركو وبجـانبه مئذنته الشهيرة (لاخيرالدا) التي بنيت سنـة ٥٨٠ وازدانت بقناطر مسننة قبل أن ينشأ الزي القوطي المسنن . وهي اليوم برج للناقوس .

هذه الملاحظات التي سلفت تنطبق على فن العمارة الأندلسيةعموماً. ولنذكر معها أن العمارة في عهد الموحدين خاصة كانت أكثر بساطة وأوسع قياساً . فان التزمت الديني عند هؤلاء انعكس أثره في التقشف المعماري والخطوط المستقيمة والجدران العارية . ولكنهم كانوا يعوضون عن ذلك باستخدام المساحات الواسعة والأبنية الشديدة الضخامة تعبيراً عن الوفرة المادية وجاه الملك .

وقد تماشى الخط الفكري للاندلس خلال القرن السادس / ١٢ م مع الخط السياسي والاقتصادي والعمراني . وما كان له أن يتأخر وهي متقدمة ناشطة . وكان لرعاية عدد من المرابطين والموحدين للشعراء والعلماء أثرها . ولكن الفضل الأساسي يرجع إلى نشاط جوانب الحياة بعضها عن بعض وإلى القاعدة الشعبية المشبعة بالعناصر الثقافية من عهد الإمارة حتى آخر عهد الطوائف . ولم يكن المرابطون الأوائل ولا الموحدون الأوائل بالذين يفهمون العربية أصلاً أو بالذين يحفلون مثلاً بالشعر العربي أو الثقافة الفلسفية أو الجدل الديني .ولذلك انصرف الشعراء عن البلاط السلطاني في مراكش إلى جماهير الشعب في الغالب وإلى زملائهم في الفكر .فكان الشعر والفلسفة والطب والدراسات الدينية والتاريخية وكأنها أضحت تصنع وتبدع لذاتها ولمجرد الفن والتأليف والجدل والمعرفة . انفصلت الحياة الثقافية بوضوح عن حياة البلاط الذي أصبح بعيداً في مراكش، بل يقصده بعضهم . ولكن الجمهرة تكتفي برواج بضاعتها في أرضها ذاتها وبين جمهورها المثقف . وهذا لايعني أن جميع زعماء المرابطين والموحدين كانوا يعزفون عن الثقافة ورعاية أهلها فقد كان بعضهم ذا حظ وافر من العلوم العقلية كأبي يعقوب يوسف (٥٥٨/ ٥٨٠)الذي كان يعرف الفلسفة والفلاسفة.وقد ضم بلاطه عدداً منهم ومن كبار العلماء كابن طفيل الاندلسي صاحب كتاب : حي بن يقظان . ولكن بعضهم الآخر كان ، بحكم التقاليد والاستمرار وبحكم التقليد أيضاً يوالي العلماء وشيوخ الدراسات الدينية والشعراء بانعامه ويبسط لهم جناحه . ولكن رعاية هؤلاء واهتمامهم وأذواقهم إنما كانت منصرفة إلى الأعمال العمرانية البنائية أكثر .

وقد غصت الفترة المرابطية الموحدية ، بأعداد كبيرة خصبة من مشاهير الشعراء والفنانين والعلماء والفلاسفة والرحالة الجغرافيين والمؤرخين والأطباء والعشابين . وكثرتهم لم ترتبط بالبلاط . ومن هؤلاء : في الفقه والحديث أبوالوليد محمد بن أحمد بن رشد قاضي الجماعة في قرطبة وجد الفيلسوف ابن رشد ، وابن المقري علي الفزاري الغرناطي وابن الخراط عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلي وابن فتحون الأوريولي ، والقاضي المشهور عياض بن موسى اليحصبي ، وأبو محمد عبدالله ابن علي الرشاطي ، وابن قرقول ابراهيم بن يوسف ، والسهيلي أبوزيد عبد الرحمن بن عبدالله ، والاقليشي الزاهد أحمد بن معد ، وابن القرطبي المالقي عبدالله بن الحسن ، وابن حوط الله البلنسي عبدالله بن سليمان ، وأبو الربيع البلنسي الكلاعي ، وابن القطان علي بن محمد ، وابن خلقون الأونجي ، وابن سيد الناس أبو الفتح محمد بن أبي بكر .... وغيرهم .. وما ذكرنا إلا القمم والبارزين .

ونبغ من الشعراء في هذا العصر نفسه ابن خفاجة الشقري الذي برع في وصف الرياض وابن أخته المعروف بابن الزقاق ويعتبران الذروة العليا للشعر القديم المجدد في الأندلس ، وثم ابن بقي القرطبي صاحب الغزل الرقيق ، وأبو جعفر أحمد العنسي من شعراء البلاط ، وحفصة الركونية الشاعرة الغرناطية ، وأبو بكر محمد بن زهر من أسرة الأطباء المشهورة وكان من مبرزي الشعراء ، ويحيى بن مجبر بحتري الاندلس وأبو البقاء الرندي صـــاحب القصيدة في رثاء الاندلس وابن الأبار أبو عبدالله محمد القضاعي الشاعر المؤرخ ، والأعمى التطيلي الذي عاش في أشبيلية وهو الشاعر الزجال . وقد هاجر قسم من الشعراء هذا

العصر إلى المشرق حاملين معهم علومهم وثقافتهم ونظموا هناك الشعر وألفوا الكتب كأبي الوليد الطرطوشي وأبي الصلت أمية الداني . واهتم الكثيرون بجمع المختارات من النظم الرفيع والنثر لكثرته كما نرى في (الذخيرة) لابن بسام وقلائد العقيان لابن خاقان .

وقد قامت المنافسة العنيفة بين الأندلسيين والمغاربة . لأن غياب التسامح في المجتمع الاندلسي أدى إلى ميل المستعربين – وهم أكثرية واضحة – بعواطفهم إلى الممالك النصرانية لاسيما وهم يرون غزواتها وانتصاراتها. وهذا مازاد في اعتماد الاندلسيين على المغرب مما دعا المغاربة إلى أن ينظروا إلى أهل الأندلس نظرة الاستعلاء والفخر والاستضعاف . وانبرى هؤلاء ينتصفون لأنفسهم بابراز رجالهم ومواهبهم ورسالة إبي الوليد الشقندي مظهر من مظاهر هذه المنافسة التي كانت ، أدبية فكرية ولكنها ذات جذر سياسي. وهذه النزعة ذاتها دعت إلى ظهور تلك المؤلفات العديدة في التراجم وفي تاريخ الأدب وفي فهارس الكتب وفي تواريخ النواحي . كانت نوعاً من الدفاع عن الذات الاندلسية في الوقت الذي كانت فيه تسجل مآثرها وابداعاتها. ومن كبار كتاب التراجم والمؤلفين فيها ابن بشكوال أبو القاسم خلف القاضي باشبيلية وله خمسون مؤلفاً في أغراض متعددة . وابن الأبار الشاعر نفسه . وابن سيداله التجيبي ، وأبو جعفر أحمد الضبي ، والقاضي عياض اليحصبي أبو الفضل ، وأبو الخطاب ابن دحية الكلبي قاضي دانية وغيرها ، والمحدث أبو محمد قاسم البرزالي الذي أنهى حياته في دمشق . كما ألف في تاريخ الأدب أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني صاحب كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة وأبو نصر الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان ومحاسن الأعيان ، وكتاب مطمح الأنفس ومسرح

التأنس . ومن المؤلفين في تاريخ النواحي والبلدانيات : محمد بن علقمة الصدفى في تاريخ بلنسية،وأبو المطرق المخزومي في فضائل ميورقة وتاريخها ، والفقيه المحدث أبو عبدالله محمد المالقي في تاريخ مالقة .

في جميع هذه النواحي كان هناك كثيرون آخرون.كما ظهر من المؤرخين البارزين : ابن صاحب الصلاة عبد الملك الباجي ، واليسع بن عيسى الغافقي صاحب المغرب في محاسن المغرب ، وبنو سعيد الذين كتبوا على ثلاثة أجيال كتابي المغرب في أخبار المغرب والمشرق في حلي المشرق وأبرزهم هو آخرهم علي بن سعيد المغربي . وهناك عبد الواحد المراكشي الذي كتب المعجب في تلخيص أخبار المغرب وابن عذارى أبو العباس أحمد الذي كتب البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب .

وفي هذا العصر مع كثرة الحركة بين العدوتين والرحلة أو التزوح إلى المشرق كثرت الحاجة إلى كتب الرحلات وتعيين المسالك الجغرافية وبرز في هذه الناحية الشريف الأدريسي ابو عبدالله محمد بن محمد المشهور والذي كتب لروجار النورمندي صاحب صقلية كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ووضع معه خارطة ثالث للعالم . وثم الرحالة ابن جبير أبو الحسن محمد الكناني الذي رحل إلى المشرق ثلاث مرات في عهد صلاح الدين وأدركته المنية في الاسكندرية . وقد كتب الكتاب المعروف برحلة ابن جبير .

وظهرت براعة الاندلسيين في النحو ومعاجم اللغة لدىالعديدين. ومنهم عيسى بنسليمان الرندي النحوي،وأبو الحسن بن عصفور الاشبيلي من أعلام النحاة في عصره،وأبو علي عمر الشلوبيني الاشبيلي . وأوسع النحاة شهرة في هذا العصر هو ابن مالك جمال الدين محمد صاحب

الأنفية المشهورة، هذا بالإضافة إلى السيد البطليوسي أبي محمد والسهيلي أبو القاسم صاحب الروض الأنف — أما في أصحاب المعاجم فلن نجد أبرع وأشهر من ابن سيدة أبو الحسن علي الضرير صاحب كتاب المخصص والمحكم والمحيط الأعظم .

أما إذا انتقلنا إلى جانب الفلسفة وما إليها، وجدنا أنه على الرغم من التزمت الديني لدى الفقهاء المرابطين والموحدين فان أبرز فلاسفة الاندلس قد ظهروا في هذا العصر. وإذا لم يظهر الكثيرون ممن يمثلون الافلاطونية الحديثة كابن مسرة القديم، فقد ظهر الأعلام من مدرسة المشائين والمدرسة الأرسطية. ويكفي ان نذكر ابن طفيل أبابكر محمد عبدالله القيسي صاحب رسالة : حي بن يقظان التي ذاعت الذيوع الواسع في الشرق والغرب ، وأن نذكر عميد فلاسفة الاندلس الذي يوازي ابن سينا المشرقي وهو أبو الوليد محمد ابن رشد (توفي سنة ١١٩٨/٥٩٥) الذي انصرف إلى إظهار التوافق بين العقل والدين . إنه يعرف في أوروبا باسم آفيروس وكانت فلسفته جسر الاتصال بين فلسفة الاغريق وأوروبا عدة قرون . وعلى الرغم من أنه أضطهد في العهد الموحدي لأسباب سياسية لكن المدرسة الرشدية كانت القمة الأخيرة فيما وصلت إليه الفلسفة الاسلامية . وله عدا ذلك مؤلفات في الفقه والفلك والطب والعقائد . ومن أشهر مؤلفاته « تهافت التهافت » يرد به على أبي حامد الغزالي .

ثم كان من أقطاب المتصوفين في المغرب والمشرق الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الأندلسي الذي استوطن دمشق وتوفي فيها سنة ٦٣٨ وهو صاحب الفتوحات المكية وكان أعظم مؤلفاته . بلغ به الغاية في

الفلسفة اللاهوتية . ويأتي بعده ابن سبعين (أبو محمد عبد الحق المرسي) الذي طار صيته كل مطار مع مدرسته الفلسفية .

وأما في الرياضيات والفلك والعلوم الأخرى كالطب فانا نجد في هذا العصر كوكبة من العلماء وإن لم يكن معظمهم من المبدعين ولكن من الضليعين فيها . ففي القرن السادس / ١٢ م عاش ابن مسعود الاشبيلي الفلكي،والرياضي ابن سهل الضرير الغرناطي،وظهر جابر بن أفلح الاشبيلي الذي اشتهر أمره في الجبر.ومن علماء الاندلس في الفترة نفسها أبو اسحق البطروجي الذي ابتدع نظرية جديدة في حركات النجوم ، ناقضاً نظرية بطليموس كلها . وإذا لم يظهر من علماء النبات أو الكيمياء من يذكر فقد ظهر الأطباء المعروفين ممن أوصلوا الطب في الاندلس إلى أوجه في القرن السادس /١٢ م كأمية الداني وابن باجة وابن رشد لكن زعامة هذا العلم ذهب بها بنو زهر أبو مروان عبدالملك وابنه أبو العلاء وأعظمهم هو عبد الملك الحفيد ابن أبي العلاء طبيب ابي يعقوب الموحدي وصاحب كتاب التيسير أفضل ماألف العرب في الطب العملي . وهناك أبوجعفر أحمد الغافقي صاحب كتاب الأدوية المفردة ، وأبو عمران موسى بن ميمون اليهودي طبيب صلاح الدين . ومن أهم كتب الفلاحة ذلك الذي كتبه ابن العوام ابو زكريا يحيى بن محمد . أما ابن البيطار طبيب أبي يعقوب أيضاً ضياء الدين أبو محمد بن أحمد فيعتبر أعظم علماء النبات في عصره .وذاع صيته كثيراً في المشرق وأصله من مالقة ولكنه تجول كثيراً في المغرب والمشرق ووصف بدقة مختلف النباتات والأعشاب في كتابه الموسوعي (وتوفي في دمشق ٦٤٦ / ١٢٤٨)وقد عاصره في الاندلس والمغرب عشاب آخر هو محمد بن السراج الغرناطي

هذه الجمهرة التي تمثل فكر الاندلس في فترة النضج والعطاء تميزت بأن الكثير من رجالها هاجروا إلى المغرب وإلى المشرق وردوا إليه دينه السابق على بلادهم وعلمائهم . وكتبوا المؤلفات الشاملة والموسوعية في مختلف العلوم والمعارف كما كان إنتاجهم في كثير من الأحيان ، في هذا العصر الصليبي ، أهم من إنتاج المشرق . هنا وبهؤلاء ينتهي تاريخ الاندلس تقريباً ليبدأ بعدهم الفصل الأخير .

٭ ٭ ٭

غرناطة ... الفصل الأخير

حين انسحب الخليفة الناصر من الاندلس لم يكن قد بقي له فيها سوى حاميات محدودة في بعض المدن وقد افترست المعركة الخاسرة كالوباء معظم جنده . وكان ذلك يعني انهيار الاندلس لأن قوتها المساندة دمرت تماماً . ومع ذلك فقد حاول الاندلسيون تفادي الكارثة المقبلة بأنفسهم بعد أن سبق السيف العذل . سرت فيهم شائعة تنبوئية ، بسبب ما كانت البلاد تحس به من فراغ بأن المخلص المنتظر اسمه محمد واسم أبيه يوسف . وشقي بهذا الأمر كثيرون من الكبراء أو الأمراء وافقت اسماؤهم ذلك.قتلهم أو سجنهم الموحدون في نوع من الانتقام للذات . وقد استطاع واحدمنهم هوسليل امراءسرقسطةمحمدبن يوسف بن هود أن يجمع معظم الشمل. كما أطاعته سبتة ورباط الفتح وسلا بعض الوقت . ورأى أن يجتذب إليه الغطاء الشرعي فدعا للخليفة العباسي (المستنصر بالله). وتلقى الخلع منه والتقليد بحكم الاندلس . واستعان ابن هود في أعماله الحربية بمغامر عرف بالمقدم الفشتي كان في الأصل من قطاع الطرق ومن حوله جماعة من أنجاد الرجال ، ظهروا في شرقي الاندلس وسيطروا عليه . وغزوا وغنموا الكثير .وعرض عليه ابن هود أن يلتحق به فقبل . وصار قائد الجيش والاسطول معاً . ولكن أهل سبتة ثاروا بهذا الرجل فركب البحر هارباً منهم . وكان ذلك آخر العهد به .

على أن محاولات ابن هود في إيقاف الاندلس على قدميها فشلت لاصطدامها بمطامع الاسبان من جهة ومطامع الرؤساء الأندلسيين من جهة ثانية . وبعد معارك وهزائم متعددة كان آخرها في شريش ٦٢٨ /١٢٣١ أمام قشتالة اغتيل ابن هود من قبل عامل المرية ابن الرميمي ٦٣٥/ ١٢٣٨ ، في حين تكالبت على أراضي المسلمين كل من قشتالة وأراغون وأخذت في ابتلاعها قطعة قطعة . والمسلمون يستغيثون ولا مغيث . كان فرناندو الثالث ملك قشتالة التي اتحدت مع ليون سنة ١٢٣٠ وهو الملقب بالقديس (١٢١٧ — ١٢٥٢) اكثر الملوك قوة ونهمـاً . فانفرد بالوادي الكبير وما عليه من المدن . أخذ جيان (٦٢٩ / ١٢٣٢) ثم قرطبة(٦٣٣ / ١٢٣٦) ثم اشبيلية وشريش (٦٤٦ / ١٢٤٨) وتبعتها شذونة وأركس وقادش حتى سنة ٦٥٩ / ١٢٦٦ وفي الوقت نفسه انفرد ملك أراغون خايمه الأرول الذي حكم ٦٣ سنة (١٢١٣ — ١٢٧٦) بشرق الاندلس فحاصر أبرز مدينة فيه بلنسية في البر والبحر . وفشلت محاولة أمير تونس الحفصي في انقاذها واختراق الحصار المضروب عليها فسقطت بعد شهر واحد من عودة اسطوله خائباً (صفر ٦٣٦ / ١٢٣٨) . وسقطت معها المدن الشرقية . وكان خايمه قبل ذلك قد امتد في البحر فهاجم الجزر الشرقية (الباليار) وتعاون مع أسطول جنوا وأهل بروفانس على احتلال جزيرة ميورقة وأخذها من صاحبها التنملي الذي استقل بها . وسقطت الجزيرة ودمر اسطولها بعد دفاع مجيد عنها سنة ٦٢٧ / ١٢٣٠ وانقطع بذلك الامداد البحري كله عن شرقي الاندلس . وبلغت بهذه الغزوات الصليبية المتواصلة الجرأة أن هاجم الجنويون ميناء سبتة المغربي ، سنة سقوط بلنسية ، لفصل المغرب عن الاندلس وللتحكم في مضيق العدوة وتجارته الهامة. ولما عجزت مجانيقهم أمام أسوارها المنيعة

اضطروا للفرار . ثم عاودوا الكرة مرة أخرى بمائة مركب واضطروا للعودة عنها بجزية تدفع لهم . . هكذا في أواسط القرن الثالث عشر بدا كأن العالم العربي الاسلامي كله لاالاندلس وحدها قد ضعف وقد طوق بالأعداء الشرسين المملوئين حماسة وتصميماً على خنقه .

ففي حين كانت تلك الهجمة الصليبية تفترس الاندلس ، كان الايوبيون أصحاب مصر والشام واليمن يداورون الصليبيين في الشام ويمنحونهم حتى القدس، ويؤمنون لهم التجارة ، وبضائعها من اليمن . ويتقاتل بعضهم مع بعض على أشبار من الأرض وأعداد من المدن يحكمها الأمراء العديدون منهم، مهددين في الوقت نفسه بالخطر الداهم القادم عليهم من الشرق ، خطر المغول. يحسبون أن الخلافة العباسية في بغداد ومملكة خوارزم شاه تحميهم منه حتى انهارتا وانهاروا جميعاً معهما سنة ٦٥٨/ ١٢٦٠ وتكاملت بهذا الشكل حلقات التطويق والهجوم على العالم العربي الاسلامي. لكن كما أنقذ المماليك في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ مصر والشام من الغزو المغولي، كذلك أنقذت غرناطة في الاندلس بعض الإرث العربي الاسلامي فيها . وكما استقر المغول في العراق وما وراءه وذهبوا فترة طويلة بتاريخه كذلك ذهبت الممالك الاسبانية بالتاريخ كله بعد ذلك . وقام البحر حاجزاً بينها وبين المغرب . وإن لم تسلم موانئه وأطرافه من أطماعها وغزواتها المدمرة .

وقصة الاندلس بعد الآن هي قصة غرناطة ومملكتها . وهي الفصل الأخير في الملحمة الاندلسية. ولم تكن «إمارة» غرناطة قائمة موجودة قبل أن تدخل الاندلس مرحلة التصفية شبه االنهائية التي بلغت قمتها بين سنتي ٦٢٨ ـ ٦٥٩ / ١٢٣٠ ـ ١٢٦٠ وتذهب الممالك المسيحية بتجارتها ومواردها وحضارتها .

وتبدأ قصة الإمارة الغرناطية سنة ١٢٣١/٦٢٨ ببروز محمد بن يوسف ابن احمدبن نصر على الساحة السياسية. كان بنو نصر يقيمون في أرجونة شمالي جيان وهم من سلالة سعد بن عبادة زعيم الخزرج أيام الرسول الأعظم فما هزم ابن هود عند شريش سنة ٦٢٨ ثم اغتيل حتى ظهرابن نصر . ولعل للنبؤة الشائعة يداً في طموحه ـ فأعلن نفسه أميراً على الأندلس. كان سقوط طليطلة سنة ٤٧٨ / ١٠٨٢ قد ذهب بقسم من اتساع الدولة فلم يبق لها إلا ثلث شبه الجزيرة. ثم جاء سقوط سرقسطة سنة ٥١٣ / ١١١٨ فتقلص الاندلس حتى لم يعد يشمل ربعها وإذا كان قد تماسك بعد ذلك قرناً من الزمن بدخول الموحدين بعد المرابطين في رداثه ، فان نتائج هزيمة العقاب ذهبت بمعظم بلاده . فلم يبق اسم الاندلس يشمل سوى مملكة صغيرة في أقصى الجنوب الشرقي على نهر شنيل من جبال رندة والبيرة المجاورة (البشرات أو سييرانفادا) مع السهول الساحلية الضيقة حتى وادي آش في الغرب والمرية ومالقة في الشرق . في هذه الرقعة قامت إمارة بني نصر التي عرفت بمملكة بني الأحمر أو مملكة غرناطة والتي مثلت وحافظت على تاريخ الاندلس وتراثه قرنين ونصف القرن .

بدأ ابن نصر أولاً باحتلال جيان ثم وادي آش وبسطة وفي سنة ٦٣٢/ ١٢٣٥ احتل غرناطة وجعلها عاصمته . واستطاع هذا الفارس العربي الاندلسي أن ينشيء في هذا الركن إمارة صغيرة اجتمع فيها كل مجد الاندلس : جمعت معظم الجماعات المسلحة المهاجرة من المناطق ، ومعظم تجارة المغرب مع اسبانيا وأوروبا وخلاصة الرقة والأناقة والحضارة الاندلسية معاً . ولم يكن هناك اتفاق بين الممالك المسيحية في سوى تدمير الدولة العربية الاسلامية والحلول محلها . وقد جاءتهم الفرصة بعد أن

خلت البلاد من الحاميات القوية ومن إمكان معونتها من الخارج فهي في فراغ سياسي لايملؤه أي أمير من الأمراء المتقدمين لانقاذها . وفيما عدا ذلك فهنالك ثغرات وإحن ومنافسات بين الممالك الغازية مكنت ابن نصر أن ينفذ منها وأن يحافظ على الإمارة الصغيرة التي لخصت حضارة الاندلس.

لم يكن محمد بن نصر من النوع المثالي ولكن السياسي العملي الواقعي . وإذا لم يقبله الناس إلا على أساس أنه الحاكم المسلم الوحيد الباقي في شبه الجزيرة فانه بدوره لم يحكم بأكثر من الدفاع عن إمارته التي سميت تجوزاً بالمملكة. وفي سبيل ذلك اتفق مع ملك قشتالة ودفع له الجزية وأعانه على اشبيليه حين حاصرها، بوصفه تابعاً من اتباعه . بهذه المكيافيلية استطاع أن يبقى على الامارة التي كان يعتبرها الاسبان جزءاً من مملكتهم ولم يبقوا عليها إلا حفاظاً على العلاقات التجارية مع المغرب وعلى المجموعات الحرفية والزراعية المسلمة التي افتقدوها في الأراضي والمدن المحتلة وتجمع إنتاجها الحضاري فيها ، أو التي انصرف ولاؤها إلى الحكام المسلمين رغم بقائها في تلك المدن والأراضي. كانت حاجة قشتالة إلى بقاء هذه الإمارة تعدل في تلك الفترة حاجة هذه الإمارة إلى رضى قشتالة بها . وقد وفرت علاقة غرناطة بقشتالة عند نشوئها سبل الحماية لها. فقد كانت في الواقع محاطة بثلاث قوى نصرانية متحفزة هي بالإضافة إلى قشتالة مملكة أراغون من جهة، ومملكة البرتغال الناشئة من جهة أخرى . وكلها تفوق غرناطة قوة .

كانت غرناطة في عصر الطوائف إمارة لبني زيري الذين بنوا أسوارها وقصورها والمساجد وفتحوا الشوارع والأقنية وجملوا المدينة القائمة في السهل تحت جبل البياسين. وقد تسلمها منهم المرابطون سنة ٤٨٣ / ١٠٩١ فبقيت تحت ولايتهم حتى سنة ٥٥١/١١٦٠ حين أخذها الموحدون

مع ما أخذوا .وفي هذين العهدين كبرت غرناطة واتسعت حتى أضحت من اكبر وأهم مدن الاندلس ويسمونها بدمشق . وصارت إمارة تابعة للسلطان مساحة مدينتها ٧٥ هكتاراً وفيها ٤٤٠٠ دار يسكنها نيف وستة وعشرون ألفاً فيهم كثير من الشاميين واليهود وقسم من البربر. وقد آلت بعد هزيمة العقاب إلى ابن هود . فلما اغتيل صارت إلى ابن نصر الذي احتلها وحكمها واحداً وأربعين سنة (٦٢٩ — ٦٧١ / ١٢٣٢ — ١٢٧٣) متخذاً خلالها لقب(الغالب) الذي ما يزال يطل في جنبات الحمراء من خلال شعار (ولا غالب إلا الله) .

حين مات ابن نصر كان قد بدأ بناء القصبة (القلعة)على مرتفع في الجنوب الشرقي من المدينة وعلى أنقاض قلعة أموية سابقة . واتخذ فيها داره التي عرفت بالحمراء بسبب لون حجارتها . كما بدأ في بناء أسوار للمدينة كلها . خلفه ابنه ابو عبد الله محمد (الثاني) فاستكمل بناء القصبة. وأتم جانباً كبيراً من السور المحيط بالحمراء . أما الحفيد محمد (الثالث) (٧٠٢ — ٧٠٨ / ١٣٠٢ — ١٣٠٨) فكان واسع النشاط لكنه أيضاً شديد القسوة مما أثار عليه مؤامرات الغرناطيين فخلعوه . ثم مات غريقاً بعد سنتين . ونصبوا أخاه أبا الجيوش نصر . والى محمد الثالث يرجع الفضل في بناء المسجد الجامع بغرناطة .

توالى على حكم إمارة غرناطة بعد هؤلاء الأربعة الأول اثنا عشر أميراً توالت عهود الأولين منهم دون كبير اضطراب لكن الأواخر هم الذين اضطربت بهم الأرض ودخلت معهم الإمارة في دوامة الفوضى . أولهم أبو الحجاج يوسف بن محمد الذي ولي الأمر ثلاث مرات اعتباراً سنةمن ٧٩٣ حتى ٨٤٠ تولى الإمارة ثم انتزعت منه.ثم توالى من بعده

أربعة أمراء حكم كل منهم مرتين . وكان آخرهم أبو عبدالله (الصغير) محمد بن علي صاحب الزفرة المشهورة والذي سلم مفاتيح غرناطة إلى ملكي قشتالة وليون : فرناندو وايزابيلا . وانطفأت معه آخر الأضواء العربية في شبه الجزيرة . ليدخل العرب المسلمون هناك في ليل الاضطهاد ومحاكم التفتيش . وليحملوا اسم الموريسكيين . وقد وضعت النهاية لملحمة الأندلس سنة٨٩٧ / ١٤٩٢ في السنة التي اكتشفت فيها امريكا .

ليس يهم تفصيل الأخبار عن هؤلاء الذين استمر حكمهم في غرناطة قرنين ونصف القرن والهام هو المسيرة العامة للدولة التي تميزت بعدد من الملامح . :

١ – كان موقعها الجغرافي يجعلها محمية من الشمال بالمرتفعات المطلة على نهر الوادي الكبير في حين كان البحر في جنوبها يجعلها منفتحة على المغرب تجارة وحماية . وهذا الوضع الجغرافي المميز أعانها كثيراً على البقاء كما أعانها على التحكم في سياستها العامة . فقد كانت جبال شلير والبشرات ذات الثلوج تحميها من الغارات الاسبانية الفاتكة . كما كان ساحلها الطويل الممتد من المرية شرقاً إلى جبل طارق والجزيرة الخضراء يجعلها رغم صغر حجمها دولة بحرية هامة على البحر المتوسط . وكانت هذه السواحل تعرف منذ العهد الاموي بالبلاد البحرية وظلت عامرة بالأساطيل ودور الصناعة والمحارس التي ورثتها غرناطة عن العهود السابقة وأحسنت استغلالها . فالمرية مرسى الاندلس وهي ثلاث مدن في واحدة وعليها الأسوار والحصون وفيها القرى والزراعات، وتليها شاوبين مركز قصب السكر ثم المنكب وفيها بدورها دار صناعة وحقول لقصب السكر والموز، ثم مالقة ولها ربضان عامران أحدهما عن علوها والآخر عن

سفلها. وفيها كذلك صناعةوتارنج ونخيل؛ثم تأتي من(مربيّة) حتى جبل الفتح حقول وزراعات إلى الجزيرة الخضراء المقابلة لسبتة. ومرساها من أحسن المراسي وهي آخر البلاد المعروفة بالبحر. وتتخلل هذا الساحل الطويل رباطات للحماية كما انه أخرج عدداً من قادة البحر لغرناطة كأسرة الرنداحي ومحمد بن السابطور الهاشمي . وأبي الحسن بن كماشة .

ومما يلفت النظر ما خطه بعض المؤرخين من أن الحكم العربي الاسلامي الأخير في شبه جزيرة إيبريا إنما كان في المناطق التي تجذرت فيها جذور الاسلام وهي نفسها المناطق التي زهت فيها الحضارة القرطاجية السامية الفينيقية في القديم . ومثل ذلك ينطبق على صقلية . وكان الخط الفاصل بين الاسلام والنصرانية في المنطقتين بوجه عام يطابق الحدود القديمة الفاصلة بين المدينة الفينيقية والمدينة الغربية. ولعل السبب في ذلك أن العرب الساميين في الحالتين انتقلوا إلى المناطق المقابلة لأرضهم في المناطق الأوروبية بحضارتهم وديانتهم وتأصلت علاقتهم وجذورهم فيها تجارياً ومصالح وأفكاراً .

٢ — تغيرت سياسة غرناطة مع طول الأيام التي عاشتها حسب الظروف . كانت سياستها على الدوام دفاعية لاهجومية بدأت وهي شبه تابع — على طريقة القرون الوسطى الأوروبية — لمملكة قشتالة . وكانت تقدم لها ما يقدمه الاقطاعيون هناك للملوك الذين يسودونهم من المال المقرر والمعونة الحربية عند اللزوم . كان الأمير الأول على ذلك . وساعدته قشتالة في حصار اشبيلية الاسلامية كما ساعدها ضد الأراغون بالقطع البحرية المكنة؛لكن هذه السياسة تغيرت بعد ذلك نتيجة قوة الدولة من جهة، وانشغال ملوك النصارى في القرن الثامن /١٤م بالخصومات

فيما بينهم . فصارت غرناطة على جانب حسن من الاستقلال لاتلتزم جانباً واحداًمن القوى الكبيرة المحيطة بها وتستفيدمن الحروب السجال التي كانت تقوم بسبب الرغبة في السيطرة الكاملة على شبه الجزيرة الأيبيرية بين قشتالة وأراغون من جهة وبين قشتالة والبرتغال من جهة أخرى وبين هذه القوى والمدالكة المغربية من جهة ثالثة . فهي تارة تتقرب من قشتالة ضد أراغون أو العكس وتارة تتقرب من البرتغال ضد قشتالة وتارة ثالثة تتقرب من المغرب مهددة به قشتالة أو غيرها . وقد مكنتها هذه السياسة المتلونة من الحفاظ على استقلالها مدة طويلة لأنها عرفت جيداً استغلال الحزازات بين هولاء المحيطين بها . وهذا ما جعل بعض المؤرخين يشيدون بالدبلوماسية الغرناطية ويصفونها أنها سياسة اللعب بكل الأوراق وبأنها مكيافيلية ناجحة . وفي الفترة الأخيرة من عمر الإمارة وبعد أن نجح العثمانيون في فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ووصل الاسلام حتى فيينا في أواسط أوروبا وقويت شوكة المسلمين في البحر المتوسط وامتلكت غرناطة سلاحاً جديداً هو المدفع حاولت انتهاج سياسة القوة والهجوم تجاه القوى المحيطة . وأقواها قشتالة . ولكن الفتن الداخلية خانتها في النهاية فلم تستطع الإفادة من هذه الظروف وسقطت .

وكانت سياسة غرناطة البحرية مرتبطة بسياستها العامة وهذا هو السبب في حرصها الشديد على أن يبقى مضيق جبل طارق سبيلها للتنفس الحرمفتوحاً لها بعيداً عن السيطرة النصرانية وآمناً للتجارة والحروب على السواء . وقد اضطرت في هذا السبيل إلى التنازل أحياناً للمغرب عن بعض قواعدها الجنوبية المطلة على المضيق مثل جبل طارق نفسه والجزيرة الخضراء وطريف ورندة ليتولى المغرب نفسه مهمة الدفاع عنها ولاتخاذها رأس جسر للتدخل في وقت الجهاد.والواقع أن غرناطة كانت اكثر ميلاً

إلى الاعتماد على المغرب بسبب العاملين الديني والتجاري.وأول من بدأ هذه السياسة هو محمد الثاني (٦٧١ ــ ٧٠٢) الفقيه فقد سعى إلى التخلص من التزاماته الاقطاعية عن طريق التعاون مع دولة بني مرين التي ورثت العرش الموحدي في المغرب وورثت معه الحلم الموحدي بالانتقام من الدول النصرانية في الاندلس . ولم يتردد سلطانها أبو يوسف في التدخل في شؤون الاندلس تلبية للرغبات الشعبية لدى المغاربة والاندلسيين المهاجرين، بالاضافة إلى الرغبة في اكتساب الشرعية عن طريق الجهاد . وقد تنازل محمد الثاني عن الجزيرة الخضراء وجزيرة طريف فاجتاز بجيوشه إلى الاندلس أربع مرات متواليات.وأوقع بالممالك النصرانية أذى كثيراً.لكنه عجز عن احداث أي تغيير أساسي في الوضع الحربي فاكتفى المرينيون بتقديم المعونة العسكرية لغرناطة التي تكفلت بأرزاق قسم من الجند المرسل إليها . ولما وجدت أنهم أضحوا عبئاً ثقيلاً على البلاد سعت إلى التخلص منهم على طريقتها بالاتفاق مع الفونسو العاشر ملك قشتالة على حليفة المريني.كما وحرضت ملك بني عبد الواد في الجزائر ليعرقل حملة جيرانه المرينيين على الاندلس . فلما وصل أبو الحسن رابع الخلفاء المرينيين إلى العرش قتل الحلم الاندلسي وطرح سياسة أسلافه الاندلسية جميعاً واكتفى بمصالح المغرب . وترك المرينيون غرناطة لسياستها ومصالحها . ولم يمنع ذلك من التعاون بين الطرفين في المصالح التجارية والسياسية في الفترات المقبلة. وكانت لغرناطة خلالها سياستها المعقدة الطويلة للحفاظ على جبل طارق تجاه جميع القوى .

٣ ــ تطويق غرناطة بالقوى المعادية جعل لها منهجاً خاصاً في السياسة الداخلية يتمم حاجتها الحربية ويسمح لها بأن تكون في حالة استعداد دائم للدفاع :

أ) فالشباب الغرناطي كان كله يدرب منذ الصغر على استعمال السلاح وعلى أساليب القتال . يقول الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب « والصبيان تدرب على العمل بالسلاح وتعلم المثاقفة كما يعلم القرآن في الألواح » والمدونات الاسبانية تشير إلى أن جميع أفراد الشعب الغرناطي حتى الأطفال منهم قد اشتهروا بمهارتهم في استعمال القوس والنشاب وترييش السهام إلى درجة تثير الاعجاب . وما تزال أصداء ذلك قائمة إلى اليوم في الاحتفالات التي يمثل فيها القتال بين المسلمين والنصارى . Cristianos y Moros

ب) وقد بلغ تكامل التسلح لدى غرناطة أنها توصلت إلى ابتكار المدفع قبل أوروبا بكثير واستخدمت البارود في ذلك . وقد أشار المؤرخون إلى امتلاك غرناطة لسلاح قاذف يحدث دوياً هائلاً وهو كما قال ابن الخطيب « الآلة العظمى » المتخذة بالنفط في كرة تنزل كالصواعق السماوية على البرج المنيع . وقد ألف مؤلف معاصر كتاباً في صنع المدفع . وأبرزت المصادر الاسبانية وهي تتحدث عن الحرب مع السلطان اسماعيل أبو الوليد ابن فرج (٧١٣ — ٧٢٥/ ١٣١٣ — ١٣٢٥) ما أحدثه هذا السلاح الجديد المميت من رعب في أوساط الاسبان .

ج) وتقلت غرناطة إلى اسبانيا فن الحرب الزناتية فقبيلة زناتة كانت تساهم بفرقة من جنودها في الجيش الغرناطى عرفوا باسم الغزاة يقودهم أمير منهم أو من بني مرين معرف بشيخ الغزاة . وكان لهذه الفرقة تكتيك حربي خاص يقــوم على سرعة الكر والفــر والحركة في الالتفاف حول العدو واستعمال الدورع الجلدية بدل الحديدية الثقيلة : واضطر الاسبان إلى تقليد هذه الفرقة حين عرفوا بأنفسهم وبقتلاهم فعاليتها .

د) وللزيادة في إرهاب الأعداء كانت تقام احتفالات خاصة دورية لعرض قوات الجيش أمام السلطان ورجال الدولة أو بعض الضيوف من البلاد المجاورة سواء أكانت إسلامية أم مسيحية . في استعراض للقوة لا يخفى معناه .

٤) قامت قوة غرناطة على مواردها التجارية وعلاقاتها مع المغرب وايطاليا ومع الممالك النصرانية الاسبانيةوالفرنسية.فموقعها المتوسط المفتوح على البحر جعلها الوسيط التجاريكماجعلها تعمل على تشجيع التجارة والاستخدام القوي للأسطول التجاري، ذي الاعلام الحمر.وزيادة أجور ملاحيه لا الاكثار من عدده ومن صلاته . وبالاضافة إلى المواد النسيجية كانت تتاجر بالأخشاب والعبيد والجلود والمعادن المصنوعة . كما تتاجر خاصة بالكتان والسكر . وكان اتجارتها بالحرير مع جنوة في إيطاليا مكانة خاصة ويلاحظ بوضوح أن قوة غرناطة أو ضعفها كانا مرتبطين بهذا العصب التجاري صعوداً وهبوطاً سواء في الانتاج أم في المبادلات الخارجية . وقد كانت غرناطة في فترة الإمارة والخلافة والطوائف مركز انتاج السكر وتجارته مع الكتان والحرير وبخاصة مع اوروبا وحين احتل الصليبيون مرافىء المشرق في القرنين السادس والسابع / ١٢ ، ١٣ م تضاءلت هذه التجارة لأن الجمهوريات البحرية الإيطالية صارت سيدة البحر المتوسط وتجلب بضاعتها مباشرة من الشرق .

وتغير الوضع في القرن الثامن / ١٤ م بعد إخراج الصليبيين من الشام. وهكذا عادت فانتعشت تجارة غرناطة التقليدية وساعدها ذلك على استيعاب الهجرة إليها وعلى الغنى والقوة الدفاعية . وقامت تجارتها هذه بصورة

خاصة مع جنوة منذ أواخر القرن السابع / ١٣ م . فعقدت معاهدة مع الأمير محمد (الفقيه) ثاني ملوك بني نصر تنص على أن يكون (كما كان الفرنجة مثلها في المشرق) فندق وكنيسة وفرن وحمامات في غرناطة .

وازداد هذا النشاط التجاري كثيراً بعد ذلك لاسيما في مالقة حيث امتلك الجنويون ستة فنادق وقامت لديهم مؤسسة للتأمين على السفن والتجارة ضد الأخطار التي تلحق بها في علاقاتها مع غرناطة . وقويت تجارة الحرير فكانت له ٦٠٠ قرية تعمل به حول مالقة . ويحماه الجنويون لينسج لديهم . وكان السكر الغرناطي يوزع في أوروبا حتى شواطىء بحر الشمال . ويحمل إلى غرناطة الورق والصوف والمنسوجات والحبوب والزيت والملح . وثم دواوين لضبط الأمور والجباية . وكان الذهب يأتي غرناطة من موردين : السودان الغربي وجنوة معاً . وقد وصلت بذلك في القرن الثامن أقصى درجات استقرارها وازدهارها . وهذا كله جعل غرناطة أغنى مدن اسبانيا . . .

وكان لتجارتها من الحرير مع ايطاليا مكانتها الخاصة . وهذا كله جعل غرناطة أغنى مدن اسبانيا ومكنها من الانفاق أحياناً كثيرة على الجيش المستأجر من المغرب ، وعلى أعمال العمران والريازة والبناء . ويكفي تذكر قصر الحمراء ومافيه من مبالغة في الاناقة لبيان غنى الدولة الذي كان يشارك فيه الكبراء والتجار والملاكون الكبار بقصورهم الفخمة . ومن المؤسف أن دواوين هذه الدولة ومحفوظاتها دمرت بعد استسلامها . وأزيل الكثير من معالمها فليس لدينا أرقام حقيقية عن تجارتها الرائجة التي كانت مركز القوة فيها إلا ماقد يكون محفوظاً منها في محفوظات بيزا وجنوه وبلنسية وبرشلونة وغيرها .

لكن الاوضاع اختلفت في القرن التالي (٩ هـ / ١٥ م) فقد توسع البرتغاليون جداً في شواطىء افريقية الغربية وعبروا أنهارها الداخلية إلى قلبها يقايضون السكان بالملح والنحاس والقدور والقماش مسحوق الذهب . كما انتجوا السكر في الجزر الخالدات وآصور ونافسو به بقوة السكر الغرناطي مما أضعف التجارة مع جنوة وأدى بالتالي إلى ضعف غرناطة المالي والسياسي . وقد وصل ذلك أوجه في النصف الثاني من القرن ٩ هـ / ١٥ م . لدرجة إلغاء مؤسسة التأمين الجنوية واضمحلت الفعالية التجارية وبالتالي القوة الغرناطية وبدأ اضطراب الدولة وفترة التدهور الأخير .

٥) كانت غرناطة في عهدها مركز هجرة نشيط سواء منها أو إليها. فقد نزحت إليها تدريجياً معظم الجماعةالمسلمة التي كرهت البقاء تحت الحكم الاسباني ونزحت منها أو عن طريقها معظم الجماعات الاندلسية التي ملأت مدن سواحل المتوسط من سبتة حتى الاسكندرية بل حتى مكة ودمشق . كانت في وقت‌ما ملجأ لبعضهم ممن يلتمسون الأمن أو ممن يجتذبهم وهج الغنى . كما كانت في الوقت نفسه منطلق هجرة لأولئك الذين يريدون البعد والإيغال في البلاد الاسلامية . وقد كان تواتر الهجرة إليها ومنها يزداد في الأزمات كما جرى في أواسط القرن السابع / ١٣ م حين سقط معظم المدن الإسلامية وفي النصف الثاني من القرن التاسع أيام الفتن والفوضى فيها ، حين أحس الناس بوضوح بقرب النهاية . وقد استفادت غرناطة كثيراً من الهجرة الوافدة التي لم تكن تأتيها من الأندلس فقط ولكن من شمالي افريقيا أيضاً،فقد حملت إليها الأعداد الوافرة من الحرفيين والبنائين العمرانيين والزراع وأصحاب المهن والعقول المثقفة ايضاً مما ضاعف سكانها وزاد في نشاط حركتها

الاقتصادية . ويكفي أن نذكر أن غرناطة الموحدين التي كان لا يزيد سكانها على ٢٥ ألف نسمة بلغت قبيل سقوطها فيما يقدرون نصف مليون. وإذا كان في الرقم بعض المبالغة فنصفه أو ربعه يكفي لبيان التكاثف السكاني فيها . أما الهجرة منها فقد كانت تشكل كما في تونس وفاس وسبتة وغيرها جاليات واسعة تنقل معها الحضارة الاندلسية بأجمل أشكالها . ومن أبرز المهاجرين إلى غرناطة ابن خلدون المؤرخ والمفكر المعروف ومن ابرز المهاجرين منها الوزير والكاتب المؤرخ الموسوعي لسان الدين ابن الخطيب .

٦)عنيت غرناطة عناية خاصة بفن الريازة وهندسة المباني. وبسبب الغنى كان رواج سوق البناء في القرنين ٨ و ٩ / ١٣ — ١٤ م وكان الأمراء يمثلون دور الريادة في هذا الباب كما كان المهندسون البناؤون فيها يمثلون خلاصة تجارب الأبنية الاندلسية الباذخة والتي تمثلت من قبل في الزهراء والزاهرة وجامع قرطبة . والحمراء ، قصر بني نصر في قرطبة أية من أيات الهندسة الفنية الأندلسية .

وقد أبقى عليها لحسن الحظ جمالها الفاتن المذهل إنها تقوم على هضبة تشرف على غرناطة فوق الجانب الجنوبي الشرقي منها اشراف الأكروبول على آثينة . وقد تعاقب على تجميلها وتحسينها أربعة أجيال على الأقل زادوا في سعتها وزينتها المبهرة وبدائع الزخرف البارز المتقن فيها . فالزخارف الملونة تملأ جدرانها والسقوف وأقواس الأعمدة والممرات بلمعان الذهب والألوان المتسقة معه . هذا إلى الأفاريز والباحات الواسعة أو المزينة بتماثيل الأسود والنوافير ، وإلى مشاهد تصور الأمراء والقضاة متكئين على الأرائك يتحاورون أو تصور الصيد والفروسية والطرد ، وإلى الأعمدة

الأنيقة الرشيقة وزخرفات الجص والقاشاني بالف رسم هندسي عدا الخطوط والكتابات والأشكال النباتية . فالحمراء اليوم جوهرة الذوق العربي والابداع الهندسي المترف والسخي في أرقى صوره . وتقوم من حول الحمراء جنات من الزهور والرياحين والظلال وأبرزها جنات العريف.

لم تبن الحمراء من الحجر أو الآجر ولكن من حجر صناعي خاص قوامه التراب والكلس والحصى يصلها بعضها مع بعض ألواح من الخشب . وقد أدار الغرناطيون حول الحمراء سوراً له شرفات حصينة وقلاع وأبراج جعلت منه الى جماله قصراً حصيناً وإن كان النظر يتوه عنه منشغلاً بالجنات وبدوامة الألوان والزخرف. إنها جنة للنظر لا للوصف على الورق .

وقد بقي من أبنية غرناطة معالم أخرى منها ثلاثة من أبوابها توجد في حي البيارين بعقودها العربية وبقايا من أسوار المسجد الجامع وبوائكه وقيصرية للتجارة . أما جامعة قرطبة فقد زالت ونقلت نقوشها إلى متحف الآثار. وأما حماماتها فلم يبق منها إلا واحد فقط.وتخرب البيمارستان الغرناطي وبقى فندق واحد من عشرات الفنادق التي كانت تؤوي التجار ويعرف اليوم بمخزن الفحم ! وله بوابة فخمة مزينة بالنقوش والزخرف : على أن هناك في خارج غرناطة العديد من القلاع العربية التي ماتزال تحتفظ بأسمائها الأولى ومن الأبراج وأسوار المدن ومن القناطر الرائعة على الأنهر والأقنية المشقوقة للري وكلها تعبر بمختلف الأشكال عن مدى مابلغه فن الريازة في غرناطة من التقدم والترف .

٧) ولم يكن تاريخ غرناطة أخيراً تاريخ حروب عابسة وعمل جاد مرهق اشتهر به الغرناطيون ، ولكنه كان بقدر عبوسه وجديته

مرحاً وذا بهجة خاصة . فالحياة الحربية والتجارية كانت تخفي وراءها حياة أخرى مكملة لها وكانت شرطاً من شروطها هي حياة الانفتاح ودوار المرح . يظهر ذلك في كثرة الأعياد التي كانوا يحتفلون بها في مختلف المناسبات . فهم يعيدون في الأعياد الاسلامية كلها بما فيها الاحتفال بالمولد النبوي،وبالأعياد المسيحية أيضاً مشاركة للنصارى كعيد الميلاد وعيد العنصرة وعيد سان خوان الذي يحتفل به الاسبان في ٢٤ حزيران (يونيو) ويقابل عيد النيروز . ويضيفون ايضاً أعياد أخرى تقليدية في المواسم كعيد العصير الذي يقضون فيه عدة أيام في الكروم لقطف العنب وعصره وهو محصولهم الرئيسي في جو من الرقص والغناء فما يزال مستمراً إلى اليوم باسمه العربي Alaeir (العصير) .

ويلاحظ أن الغرناطيين كانوا يحملون أسلحتهم معهم في مثل هذه الأعياد للتدرب ولمجاورة أراضيهم للعدو. وحقولهم مكشوفة.كما أن مشاركتهم في الأعياد النصرانية كانت نتيجة التعايش بين معتنقي الدينين قروناً طويلة . وكثرة المسيحيين بين السكان . والتسامح الاسلامي معهم ونظرة الرهزا القرآنية للسيد المسيح بمازج ذلك كله طائف من التقرب إلى الأجواء النصرانية السائدة .

وكانت ترافق الأعياد عادة ألعاب جماعية مايزال بعضها قائماً في أسبانيا،وكلها تقريباً أعمال للتدريب الحربي كنصب حلقة تسمى الطبلة والرمي إلى داخلها بالسهام والخيول راكضة . أو المبارزات الفردية والجماعية بالقوى أو مصارعة الثيران ، هذه الرياضة التي وصفها لسان الدين ابن الخطيب وكانت الكلاب تطلق فيها على الثور بدل الرماحين لتخضد قوته قبل بروز المصارع إليه ليصرعه برمحه أو بالسيف .

كان الغناء والموسيقى بالطبع يرافقان هذه الأعياد . ذكر ابن الخطيب أن الغناء شاع في غرناطة زمن بني الأحمر فهو فاش حتى في الدكاكين التي تجمع كثيراً من الأحداث . وحافظت الإمارة على التراث فيه. وللموسيقى والغناء في الأندلس لونهما الخاص وانتشارهما الشعبي الواسع . وما تزال الاندلس إلى اليوم تغني بألحان غرناطة القديمة كما لا يزال في الموسيقى التونسية لون من الغناء الشعبي يعرف بلحن غرناطة .

ومن الهام أن نلاحظ أن الكثير مما أوردناه عن غرناطة لم تكن وحدها تتميز به وإن برز فيها،ولكنه كان نتيجة تراث حضاري طويل عاشته الأندلس وتراكمت آثاره فيها.فالموسيقى مثلاً والغناء والأنس والأعياد والأبنية بجناتها المزهرة وحركة الهجرة واستخدام الموارد في البذخ والتسامح الديني كانت كلها من التقاليد والعادات الاجتماعية التي تسود في الأندلس خلال العهد الاسلامي كله . كما أن نمو الحرف ورواج الحركة التجارية والقوة الاقتصادية كانت دوماً في قاعدة الازدهار لكل حكم أندلسي ناجح . وحركة الجهاد كانت مفروضة فرضاً على الحكام المسلمين بسبب حالة العداء التي أقامتها الممالك النصرانية ضدهم . ولم يكونوا ليكرهونها باعتبارها تمنحهم الشرعية الضرورية والسمعة أمام الناس .

ومثل ذلك يقال في الحياة الفكرية لغرناطة . إنها لم تكن حياة خاصة بها ولكنها استمرار وتلخيص للفكر الاندلسي كله ، وإن تناقص فيها عدد البارزين والمبدعين ،وخفت فيها موارد الابداع جراء الهجرة المستمرة التي أفقرت البلاد باستمرار . وكثير من الأدمغة الهاربة كانت تفضل التحرك إلى داخل البلاد الاسلامية بدل البقاء على الطرف القلق المهدد للعالم الاسلامي .

هكذا لم تلمع خلال العصر الغرناطي الذي دام قرنين ونصف القرن ولا ربع الوجوه التي لمعت في العصور السابقة سواء في العدد أم في سعة الثقافة وكثرة التأليف ونوعية الانتاج . كانت غرناطة في الناحية الثقافية تعيش على اصداء الماضي . ولقد قسم أحد المستشرقين العصر الغرناطي في هذه الناحية إلى ثلاث فترات :

– فترة غلب فيها التأثير النصراني وكان ذلك على أيام دولة أولاد نصر الذين كانوا أفصالاً وأتباعاً صرحاء لملوك قشتالة .

– وتلتها فترة جاءت في القرن الرابع عشر وكانت بين بين اختلطت فيها المؤثرات المسيحية مع المؤثرات الشرقية الافريقية وتفاعلت بعضها مع بعض في كيان ثقافي سياسي خاص .

– وأخيراً كانت الفترة الثالثة خلال القرن الخامس عشر والتي غلب فيها الطابع المشرقي الأفريقي على مملكة غرناطة وثقافتها بصورة واضحة جداً .

وهذا التقسيم يتساوق مع الأوضاع السياسية للمملكة ومع علاقاتها الاقتصادية إلى حد كبير . ولكنه لا ينطبق تماماً على الحياة الثقافية التي تقلصت على مقدار ماتقلصت الرقعة الجغرافية للأندلس وعلى مقدار نزفها الفكري المستمر ، وهكذا استمر الناس يقولون الشعر من فصيح وزجل . لكن أعداد المبرزين منهم تراجعت فلست تستطيع أن تعد في القمة أكثر من اثنين هما الوزير المؤرخ الطبيب السياسي لسان الدين ابن الخطيب (٧٧٦ / ١٣٧٤) ومنافسه ابو عبد الله محمد الشريجي المعروف بابن زمرك وكان تلميذاً له ثم صار عدواً . وقد وصف الأول عواطفه في أحواله من جد وهزل وعنى الثاني بالبساتين والزهر والحب .

أما الزجل فقد أغرم به الغرناطيون ونظمه حتى كبار العلماء كالنحوي أبي حيان ابن حيان وابن عبد العظيم الوادي آشي بالاضافة إلى ابن الخطيب نفسه وابن زمرك . ويذكر ابن خلدون أنه حين زار غرناطة وجد الزجل هو الفن الشعري السائد لكن القلائل هم الذين برزوا فيه . ذلك أنه لغة الناس العادية يومذاك. وكان الكثير يمزجون في لغتهم بين الرومانس (لغة الاسبان فيما بعد) وبين العربية الدارجة .

ويبدو أن شغف الناس بالتاريخ لم يفتر في غرناطة ولكنه أيضاً لم يزدهر. ولا تكاد تحصى الكثيرين فيه كابن أبي القاسم الرفدي الذي كتب (تاريخ الاندلس) وابن الفارق الـذي ألف (تاريخ بني نصر) المبكر . وأبو بكر بن خمسين الذي كتب تاريخ الجزيرة الخضراء وابن الحاج التلفيقي صاحب تاريخ المرية وبجانة ، وابن خاتمة الذي وضع كتاباً في وصف الطاعون . لكن الذي سيطر على الحياة الثقافية في القرن الثامن / ١٤ هو دون شك لسان الدين ابن الخطيب . لقد طغى بمواهبه المتعددة على الحياة الثقافية في غرناطة فله مشاركة في كل شيء : في الشعر كما في الطب وفي الفلسفة كما في التاريخ والفقه والأدب . فهو موسوعة العلوم الغرناطية . ويحسب على علماء غرناطة أيضاً ابن خلدون وقد عاش في تلك المدينة ردحاً من الزمن ويعده أهل تونس منها لأنه تونسي الأصل والمنشأ كما يعده المشارقة فيهم لأنه عاش أيضاً في دمشق والقاهرة . و« مقدمة » تاريخه، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر أشهر من أن تذكر . وهو الرائد في علمين جديدين ابتكرهما : علم الاجتماع وفلسفة التاريخ .

ولا نكاد نجد أحداً من مؤرخي الأدب يماثل من ظهر في العصر المرابطي — الموحدي . والاسم الوحيد الذي يلوح هو اسم محمد بن علي

ابن هاني السبتي . أما في الجغرافيا وأدب الرحلات فتجد العديد . ولعل لنشاط هذه الحركة التنقلية يداً في ذلك . فقدكتب أبو عمر النوشريشي رحلته في المغرب ومصر والشام،وسجل ابن رشيد السبتي الفهري رحلته بدوره كما سجلها ابن جابر الوادي آشي ، وأبو البقاء البلوي . على أن أشهر الجميع والذي فاق ماركو بولو ، في طول الرحلات وفي مسالكها وذكر غرائبها هو ابن بطوطة اللوتي الطنجي . وقد أملاها في غرناطة .

وبرز في الفقه علماء محدودون منهم القاضي أبو بكر محمد بن عاصم القبسي وولده أبو يحيى ، وابو الحسن سلام الباهلي وبرز في آخر أيام غرناطة متابع لابن خلدون هو ابن الازرق الاشبهي والأديبأبو عبد الله ابن الحداد وأبو الحسن القرشي البسطي وأبو الحسنالتجيبي الزقاق، وأعظم هؤلاء الوزير الكاتب ابو عبد الله العربي المعروف بالشريف العقبلي .

والأمر في التصوف كالأمر في غيره فلا نكاد نجد سوى ابن عباد الرندي النفزي الذي ختم حياته إماماً وخطيباً بجامع الفرويين في فاس . وكذلك لا نجد من علماء الرياضيات والفلك سوى ابن البناء الغرناطي أبي العباس الأزدى، وهو فيلسوف لغوي صوفي وأبي بكرمحمد الرقوطي وابن الشماط السرقسطي الذي رأس أول مدرسة اسلامية أنشأها ألفونسو العاشر في مرسية سنة ٦٧٦ / ١٢٦٩ ثم رحل الى غرناطة . ومن أجل الرياضيين الفلكيين ابن الشماط السرقسطي وابن أبي شاكر وكان مهندساً فلكياً هاجر إلى الشام وابن الزكان الأوسي ولم يكن له مثيل في الرياضيات ولعل أشهرهم هو أبو الحسن القلصادي الذي ظهر في القرن التاسع / ١٥

ورحل إلى المشرق ثم عاد يقيم في غرناطة وانتهى في المغرب وهو آخر العظماء من الرياضيين . . .

ولعل من أسباب هذا الشح في الحياة الثقافية في غرناطة ضغط التوتر الحربي على الناس ونزيف العقول المستمر بالاضافة إلى ضيق الرقعة الأرضية بالنسبة إلى اتساع الأندلس السابق . . وعلى أي حال فقد كانت الأندلس، في ختام العصر الغرناطي، قد انتقلت بكل تأثيرها الحضاري إلى المغرب خاصة لتواصل الحياة هناك ولكن ضمن مؤثرات فكرية وفنية وعمرانية واقتصادية افريقية وجدت نفسها فيها وتفاعلت معها لتكون حضارة المغرب .

* * *

النهاية والأصداء

في أواخر القرن التاسع/١٥ م جاءت نهاية غرناطة. قتلت قتلاً .
لم تكن نهايتها نتيجة شح في الموارد أو اضطراب فيها أو تغير في قاعدتها الاقتصادية أو شيخوخة في الفكر . ولكنها جاءت نتيجة قيام مملكة مجاورة لها أقوى منها بكثير ، واقتطاعها لأراضيها مدينة بعد مدينة وأحتجاز مواردها التي ما انفكت تتناقص في المركز لهذا السبب .
وقد اشترك في رسم هذه النهاية :

— الفتن الأسرية التي مزقت الإمارة نتيجة تكاثر الطامعين في الحكم وتناحرهم المأسوي :

— حماسة رجال الكنيسة لفكرة طرأت عليهم منذ زمن ورافقت فكرة الاسترداد للأراضي الاسبانية وهي فكرة التنصير . أي دفع الصلبيات حتى نهايتها .ومردها إلى أمرين : نجاح قشتالة وأراغون في التوحد وفي ازدياد نفوذهما على غرناطة وصيرورتهما دولة مسيحية كبرى واحدة ،ثم شدة ألم الكنيسة ذاتها والبابوية من نجاح العثمانيين المسلمين في النفوذ إلى داخل أوروبا حتى فيينا واحتلال القسطنطينية سنة ١٤٥٣ مما زاد في نقمة رجال الدين المسيحي.ودفعهم إلى زيادة الحماسة للانتقام من المسلمين بأي مكان في صليبية جديدة .

– عدم جدوى الدبلوماسية التي اتبعتها غرناطة طويلاً في تقلب الاعتماد تارة على المغرب وأخرى على قشتالة أو غيرها بعد أن تغيرت الموازين الدولية بتضخم قشتالة بعد التوحد مع أراغون وضعف المغرب الشديد بسبب الفتن الداخلية فيه .

– تأكد قشتالة من عدم نهضة المماليك في مصر أو الحفصيين في تونس أو العثمانيين في البلقان لانجاد غرناطة.لأن هذه الدول لاتملك القوى البحرية للوصول،ولأن غرناطة وشيوخها والفقهاء طالما بعثوا يستغيثون فكانت الاستغاثة تتنزل في آذان صماء.ولم يكن غريباً أن يتنبأ الكثيرون وأن ينتظروا النهاية للملحمة الاندلسية .

الاسبان يعتبرون اعتصام محاربيهم الثلاثين في كوفادونغا سنة ٧١٨/١٠٠ بدء حرب الاسترداد التي انتهت بسقوط غرناطة.لكن هذه الحرب لم تبدأ في الواقع إلا مع بدء الحركة الصليبية في القرن الخامس/١١ م .وفي اسبانيا بالذات قبل بدئها في غيرها . وقد كانت الحركة تحمل طابع الحرب الدينية السياسية لا طابع الاسترداد ولاطابع توحيد اسبانيا المسيحية . فلم يكن لهاتين الفكرتين وجود في تلك الأوقات وإنما وجدتا ونضجتا بعد القرن الخامس/١١ م نتيجة الانتصارات التي حققتها الممالك النصرانية بعد أن هجرتها دولة الاندلس لمصيرها في الشمال طويلاً .

ولم يكسب توحيد اسبانيا النهائي رواجه إلا بعد سقوط مدن الوادي الكبير في ايدي قشتالة حول أواسط القرن السابع/١٣ م . وفي ذلك الوقت نبتت فكرة التنصير . ولم يصبح التوحيد اكيداً إلا يوم زواج فرديناند ملك الأراغون بأيزابيلا ملكة قشتالة ٨٧٤ / ١٤٦٩ ولم تنضج فكرة التنصير وتصبح سياسة لهذه المملكة إلا بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧/١٤٩٢ .

بدأ السقوط النهائي حين أساء الأمير أبو الحسن علي بن سعد (٨٦٨ — ٨٩٠ / ١٤٦٣ — ١٤٨٣)(١) تقدير الظروف الدولية والخاصة، وجرب التحول بسياسته من الدفاع إلى الهجوم، فامتنع عن دفع الإتاوة لملك قشتالة حين رفض هذا تجديد الهدنة معه وقال لرسوله : « قل لمولاك أن ملوك غرناطة الذين اعتادوا دفع الاتاوات قد ماتوا وان دار السكة بغرناطة لاتسك الآن ذهباً أو فضة وإنما سيوفاً ورماحاً » . ويقولون إن فرناندو غضب حين سمع ذلك وقال «غرناطة ! غرناطة ! سوف أنتزع حباتك حبة حبة (٢) » .

وبدأت الحرب التي دامت بعد ذلك عشر سنوات. لعبت فيها الفتنة الأهلية الدامية أسوأ الأدوار . وقد تهور السلطان أبو الحسن علي ففتح قلعة الصخرة، غربي رندة سنة ٨٨٨/ ١٤٨١ وهي من املاك قشتالة. وسادت إثر ذلك موجة من الروح المعنوية في غرناطة ما لبثت أن انتكست حين أخلد السلطان إلى الراحة والملذات. واحتجب عن الناس وأهمل الجند والجهاد ففاجأه ملك قشتالة في السنة التالية باحتلال الحمة وهي المدخل إلى غرناطة من الجنوب الغربي قاطعاً بذلك طريق التجارة البري عنها وطريق الاتصال مع جبل طارق . وخرج ابن أبي الحسن (وهو أبو عبدالله الصغير نفسه) على أبيه بتحريض من أمه، فيما يقال، لأن أبا الحسن تزوج عليها فتاة اسبانية وآثر أبناءها . واحتل أبو عبدالله غرناطة وتجرأ فهاجم بلدة اللسانة في قشتالة وهو في الطريق إلى قرطبة ولكنه وقع أسيراً فعاد أبوه إلى غرناطة . ثم مالبث أن تنازل عن الملك لأخيه محمد المعروف

---

(١) تخلل حكمه فترة انقطاع حكم فيها ابن عبدالله الصغير في سنة ٨٨٨ / ١٤٨٢

(٢) غرناطة تعني في الاسبانية ثمرة الرمان .

بالزغل (تعني الشجاع) واستغلت قشتالة في هذه الفوضى أسيرها فأطلقته بعد توقيع معاهدة لعامين تجعله من اتباع الملك . وأعانته ضد أبيه بجيش احتل جانباً من العاصمة فغدت مقراً لسلطانين في وقت معاً . في حين كان جيش قشتالة يبتلع مدن غرناطة واحدة تلو الأخرى ومنها بلش ومالقة ثم لوشة. وحين عاد الزغل فاشلاً من معركة مالقة وجد غرناطة تحت حكم أبي عبدالله الصغير في ظل الحراب الاسبانية . وانقسمت الدولة في احلك أوقاتها وأحرجها قسمين : غرناطة ويحكمها أبو عبدالله الصغير ، ووادي آش حيث التجأ الزغل . ولم يلبث هذا الرجل حين حاصره الاسبان أن هادنهم وانتقل إلى البر المغربي يجتر آلامه في تلمسان ويعيش من أحباس الفقراء . واحتل الاسبان وادي آش والمدن والثغور الأخرى .

بقي أبو عبدالله الصغير هو الوحيد في الساحة ولكنه ليس يملك إلا على مدينة واحدة وبعض أرباضها . وكشف الاسبان عن نواياهم في النهاية حين بعثوا برسالة إلى ضيفهم أبي عبدالله يطلبون منه التسليم.وفي اللحظات الحرجة أدركت أبا عبد الله النخوة ، ومع أنه كان يعرف ضعفه ، إلا إنه رفض الخنوع واستمد من الضعف قوة وقرر الدفاع عن غرناطة حتى النهاية !

وكانت النهاية معروفة . احتل الاسبان الحقول القريبة من غرناطة. وحاصروها.وبنوا فيها حصناً متوقعين طول الحصار . أتلفوا الحقول والزرع . قطعوا كل اتصال للمدينة بالخارج . هدموا القرى . وحين كلب الشتاء وهطلت الثلوج ، وتقطعت السبل ، جاعت المدينة أسوأ الجوع .وعظم البلاء بعد حصار استمر سبعة أشهر . واجتمع كبارها في

قصر الأمير بالحمراء ليقرروا المصير والاستسلام . قائد واحد رفض هو موسى بن أبي غسان . قال : «اتركوا العويل للنساء فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لارسال الدمع ولكن لتقطر الدماء . ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته فلن يعدم سماء تغطيه . وخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها . . . »

وفي حين خرج ابن أبي غسان ليموت منتحراً في القتال كان المجتمعون بالحمراء يشكلون وفد الاستسلام . كان ذلك في صفر من سنة ٨٩٧/ كانون الأول ١٤٩١ . وسلمت المدينة على أن يتم تسليمها بعد شهرين ان لم يصلها خلالهما المدد . ولم يصلها المدد أبداً . ويقال إن أبا عبد الله الصغير عقد مع ملك قشتالة اتفاقيتين للتسليم إحداهما سرية والأخرى علنية لإرضاء الناس . وليس يهم ذلك ما دام ملكا قشتالة قد استلما مفاتيح غرناطة وتركا لعبد الله الصغير أن يلقى آخر نظرة عليها من عقبة « الزفرة » . . . ويقولون إن أمه رأته في الدموع فقالت له :

ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

ويلومون أبا عبد الله وإنما كانت مأساته نتيجة تصرفات حمقاء قام بها اكثر من أمير قبله ، وشارك هو ، في النهاية ، بها . فانفجرت في وجهه . ودخل جيش قشتالة غرناطة التعيسة في ٢ كانون الثاني سنة ١٤٩٢ وفي حين كان أبو عبد الله يبحر إلى المغرب نحو فاس ليموت منسياً سنة ٩٤٠ / ١٥٣٣ وبدأت مأساة بعد استسلامهم الموريسكيين ! (١)

(١) أتت هذه التسمية من تصغير الكلمة الاسبانية مورو والتي تعني المراكشي المسلم وهي بدورها اتية من كلمة موريتانيا ، وفيها معنى الاحتقار .

هؤلاء هم المسلمون الذي بقوا في مدنهم وأراضيهم تحت الاحتلال الاسباني . ماتعلم الاسبان من تسامح المسلمين شيئاً . ولا قدروا هذا التسامح . وعلى الرغم من العهود والشروط التي أقاموها على أنفسهم بالحفاظ على حريات المسلمين وأموالهم وأرضهم وبخاصة على دينهم فقد بدأت على الفور حملة التنصير . كان غرور المتصرين يدفعهم إلى المدى الأخير في معاملة المغلوبين ، ومحاولة إنهاء « المشكلة الاسلامية » في اسبانيا بطمس هويات المسلمين بكل وسيلة . وانقلب الناس ولكن بصعوبة كبيرة وبعد ماسٍ لاتنتهي كما شاء الغالبون ، فتنصر الكثير منهم كما هرب الكثير وقتل الكثير . . . والشاعر الاسباني المعاصر فيلاسباسا يقول : لوحك أحدنا جلده لظهر تحته جلد العربي المسلم. ومع ذلك فان المتنصرين الجدد ظلوا على الدوام موضع شبهة وريبة لئلا يكون تنصرهم رياء . أبداً ما اطمأن إليهم رقباء الكنيسة وجواسيس الملك . فكان المجتمع الاندلسي السابق بمسلميه ومسيحييه الجدد عرضة للاتهام أمام ديوان التحقيق والتفتيش .

والمأساة الموريسكية أو قصة التنصير الاجباري الطويلة ومحاكم التفتيش ، ظلت تحكم اسبانيا ، إلى أن تلاشت حدتها ، نحواً من قرن ونصف قرن في أطول وأسوأ اضطهاد عرفه التاريخ . ولا يماثله إلا ما قام به الاسبان أنفسهم (١) وفي الفترة نفسها ، مع هنود أمريكا الحمر حتى قضوا على ٩٠ بالمائة منهم . قاد حملة التنصير رجال الدين في اسبانيا وانساق معهم الملوك طائعين تديناً وسياسة . ولعل السبب في شدتها أن اسبانيا في الوقت الذي انتصرت فيه على غرناطة ، وفي السنة نفسها ، اكتشفت

(١) ماتقوم به الصهيونية اليوم في فلسطين .

امريكا وتدفق عليها نهر من الذهب من امبراطورية لاتغيب عنها الشمس. وهذا الوضع الاقتصادي جعل كل شيء ممكناً في نظرها.وجعلها اكثر إصراراً على جعل اسبانيا إن لم يكن العالم ، على النصرانية . وكان الكفر أو الزيغ الديني هو السيف المصلت ، وهو الوسيلة لتسيير السياسة والدين (أو الملك والكنيسة) في خط واحد .

عملية التنصير كانت تعني عملياً حكم الاعدام على أمة بأسرها عن طريق التذويب الاجباري في المجتمع المسيحي الاسباني أو القتل أو النفي من البلاد . وأصابت جانبياً اليهود مع المسلمين المدجنين والموريسكو على السواء وقد تعبت اسبانيا كثيراً وأتعبت المسلمين أيضاً في هذه المحاولة . لجأت إلى أقسى الوسائل حتى التعذيب الجسدي الوحشي وتجسس الأبناء على الآباء وسحق العظام والسجون السرية والحديد المحمى لتقتلع جذور ٨٠٠ سنة من الحضارة العربية الاسلامية . وبسبب عمق هذه الجذور وتفوقها النوعي في الحضارة كان ذلك الاستعصاء وكان ذلك الموت البطيء لها على مدى قرنين . وكانت تلك الأصداء التي ما تزال تصرخ في اسبانيا بالماضي العربي حتى اليوم .

ومن العبث التفصيل في صنوف الاضطهاد والتعذيب التي تعرض لها من سماهم الاسبان بالموريسكيين احتقاراً لهم . إنها مأساة جماعية ترتعش لها أقسى القلوب . ولكن الملوك ورجال الدين مارسوها بدم بارد مطمئنين إلى وجدانهم الديني ولم يظهر أثر هذه المأساة الاقتصادي على اسبانيا التي حرمت بهذه العلمية من أفضل عناصرها الحرفية والتجارية والفكرية والفنية قتلاً وتشريداً وتعذيباً وسجناً لأن دفق الذهب والعبيد

من امريكا غطى على ذلك لفترة طويلة . ولكن آثارها ظهرت فيما بعد . فحل الخسوف بها وعم الظلام والخمول منذ أواسط القرن السابع عشر حتى مطالع القرن الحالي.وظهر تخلفها الذي كانت قيه في العصر الوسيط بأجلى مظاهره .

بدأت المأساة عملياً قبل سنة من انتهاء القرن الخامس عشر حين عين الكاردينال خيمنز دو سيسنيروس ، كاهن الملكة ايزابيل الخاص ، لمهمة حمل المسلمين على التنصر ناقضين بذلك عهودهم التي عقدوا عند استلام غرناطة وغيرها . والواقع أنها بدأت في قشتالة قبل ذلك بوم صدر المرسوم البابوي باقامة محاكم التفتيش سنة ١٤٧٨ قبل ١٤ سنةمن سقوط غرناطة بل كانت موجودة في مملكة آراغون منذ مطالع القرن الثالث عشر .

صادر الكاردينال أولاً الكتب العربية المتصلة بالدين الاسلامي فجمعت مخطوطاتها اكواماً في ساحة غرناطة وأضرمت فيها النيران . ثم أنشأ ديوان التفتيش للتحقق من عقيدة الموريسكيين بعد أن أجبروا إجباراً على التنصر . وتنصروا رئاء الناس ، وهم يضمرون الاسلام . وعمدوا بأسماء اسبانية ، مرغمين تحت طائلة التعذيب أو الاحراق أو القتل . وفيسنة ١٥٠١/٩٠٦صدرت الارادة الملكية بأن على الموريسكيين في قشتالة وليون إنكاردينهم الإسلامي أو الجلاء عن البلاد . وتحملت جموع واسعة من الإندلس إلىالمغرب وتونس وإلى مصر . أما الباقون فكان مجرد الشبهة فيهم من مزراب حمام جار ، أو همس وشاية أو أوراق منسية أوعدم الصلاة في الكنيسة يكفي لتحويلهم إلى جحيمديوان التفتيش.أصابت هذه المحنة الجماعية ما بين ثلاثة إلىأربعة ملايين مسلم في الاندلس عاشت عدة أجيال منهم في حالة رعب دائم .

وخوف من ظلمة السجون ونيران المحارق عدا السعايات، ولجأ بعضهم إلى كتابة لهجتهم الرومانسية بأحرف عربية (وهو ما يسمى بالألخميادو) للتستر والتعمية . وفي سنة١٥٥٦ منع المسلمون من استخدام لغتهم أو ملابسهم أو عاداتهم في الاستحمام. وهدمت الحمامات باعتبارها أثراً اسلامياً حضارياً.وفرضت الغرامات الثقيلة . ولم يكن المسلمون في كل ذلك كالخراف المستكينة ولكنهم عاشوا حياة مزدوجة : واحدة ظاهرية للحياة العامة وأخرى داخلية لانفسهم.حتى إذا بلغ الاضطهاد أوجه لجأوا بعد الاحتجاج والشكوى إلى الثورة . ثاروا ثورات صغيرة مهيضة الجناح محدودة السلاح في أحواز سرقسطة ، وفي منطقة بلنسية وكان فيها زهاء ٢٧ ألف أسرة متصلة بحراً بالمغرب . ولذلك لقيت ثورتها المقاومة حتى بالمدافع . وقبلت منهم في النهاية الغرامات . وخشي نبلاء الأراغون وسادتها على الطبقة الزراعية والحرفية فيها وشرحوا مساوىء ذلك للملك ولكنه لم يصغ إليهم بل إلى رجال الدين.فتم تنصيرهم جميعاًسنة ١٥٢٦.ومنعوا من لبس الحرير والذهب ومن الملابس العربية. فثاروا في بلنسية كرة أخرة ومزقوا ، أو جرى نفيهم إلى الشمال . وثار الموريسكيون في غرناطة أيضاً على الاضطهاد المتصل .

وعلى الرغم من تنصر الكثير منهم فقد كانوا يعدون مواطنين من الدرجة الثانية . ومنعوا فترة من السفر في البحر ومن اقتناء السلاح ومن الحديث بالعربية ومن تحجب النساء ومن الختان والحمامات حتى بلغ اليأس حد الثورة . وتزعم الفكرة رجل يقال له فرج بن فرج ولكنه بعد أن أحتل قسماً من غرناطة فشل.وإنما بقيت الثورة بعده . وأختار الموريسكيون للزعامة فتى أموي الأصل احتفلوا بتتويجه أواخر سنة ١٥٦٨ وتسمى بمحمد بن أمية ، صاحب الأندلس وغرناطة.

وقام الثائرون بكثير من الأعمال الانتقامية واعتصموا بجبال البشرات . وكان جزاء من يقبض عليه من زعمائهم نزع لحمه عن عظامه حياً ثم تمزيق اشلائه واحراقها . وفتك الاسبان ، في مذبحة مروعة بمائة وخمسين من أعيان الموريسكيين أخذوهم رهائن في غرناطة . . مما زاد الثورة ضراماً . لكن محمد بن أمية قتل غيلة بيدبعض جنده. فأختار الثائرون زعيماً آخر يعرف بابن عبود وتسمى بعبد الله محمد استطاع أن يجمع حوله مايزيد على عشرة آلاف محارب بين مجاهد ومرتزق ومغامر فسارت إليهم الجيوش الاسبانية واحداً بعد الآخر فأفنوا من في وادي آشق من الموريسكيين حتى الأطفال وامعنوا في التقتيل والتخريب وحشدت اسبانيا حوالي ١٥٠ ألف جندي على رأسهم شقيق الملك. وطوقوا منطقة الثورة وأقبلوا يستأصلون جذورها موقعاً بعد موقع واستطاعوا في النهاية اجتذاب بعض الخونة بانوعود. فقتل ابن عبود ورمي بجثته إلى الاسبان الذين استقبلوها في غرناطة بموكب ضخم وحكموا عليها بالاعدام. فقطع رأسها ثم جرت في شوارع المدينة ومزقت قطعاً ثم أحرقت في الميدان . أما الرأس فنصب على سارية في بعض الضاحية.

وخمدت الثورة وإن لم تخمد النفوس وعاد الاضطهاد كما كان وأشد .

في سنة ١٦٠٩ صدر القرار الأخير بالطرد الجماعي . وأخرجت الجماعات الاسلامية من بيوتها ومحترفاتها ومزارعها قسراً. وصودرت أملاكها . ويذكرون أن عدد هذه الجماعة الأخيرة بلغت نصف مليون في أقل تقدير نقلوا إلى المرافىء الافريقية أو ركبوا الأشرعة إلى مختلف البلاد الاسلامية على البحر المتوسط وبخاصة .

تونس ومصر . كانت الامبراطورية الاسبانية قد بلغت يومذاك أوج قوتها واتساعها ولم تعد تأبه لردةفعل محتملة من الدولة العثمانية التي أصمت ، على أي حال . أذنيها عن أي نجدة فعلية للأندلسيين فيما عدا بعض الجهود الدبلوماسية . ولقد يكون من دوافع هذا الإجلاء الاضطراري كثرة أساطيل القرصان في الحوض العربي للمتوسط . وتعاون « الموريسكيين » معهم ، لاسيما بعد أن أحتل القراصنة ، في ظل العلم العثماني مناطق عدة من شمال افريقية . وعلى أي حال فان القرصنة بدل أن تقل ازدادت لأن أعداداً واسعة من أولئك المطرودين التحقت بالقراصنة !

وهضمت اسبانيابعد ذلكعلى مهل الجماعات المسلمة المستترة فيها..

يبقى أن نذكر أن الثقافة العربية الاندلسية،رغم فقرهاواختناقها، وسد المنافذ عليها،ومنع تفاعلها مع العالم العربي الاسلامي،بقيت حية لدى الموريسكيين.ولكن على نطاق ضيق . يتفق مع حاجاتهم . وأكثر كتب الخزائن الموريسكية .كانت ذات موضوعات دينية أو قصص خرافية أو تعاليم شرعية . وقد كان أصحابها يخفونها أشد الخفاء ومنها: الكتاب الشقوبي.وهومختصر سني في أهم واجبات الاسلام والسنة . كتب باللغة القشتالية . ومنها في الشعر : قصيدة يوسف وهي مقطعات بالقشتالية أيضاً كل أربعة أبيات منها على قافية واحدة . وكثيراً ماكان الموريسكيون يستخدمون الشعر لتحفيظ الأبناء واجبات المسلم . ومن الشعراء خوان الفونسو الذي هاجر إلى تطوان وكتب هناك شعراً يقول فيه بالقشتالية أيضاً مهاجماً النصارى :

أيها الغراب الاسباني اللعين

باناشر الوباء . ايها السجان البغيض

هاأنت ذا واقف برؤوسك الثلاثة

على أبواب الجحيم ! ...

ومن الشعراء كذلك محمد ربضان صاحب كتاب تاريخ نسب محمد وقصة فزع يوم الحساب وقصيدة اسماء الله الحسنى ، والحاج بوي ماتسون الذي كتب مقطعات تصف رحلته إلى الحج .

وكتب الموريسيكون قصصاً تلمس فيها الطابع العربي وبعضها عن حياة الأنبياء أو الصحابة أو من القصص الخرافي وحديث الجن وقصص ألف ليلة ؛ أو قصص الفروسية. وهي على أي حال أشد طرافة وقيمة من الشعر. ومما يلاحظ أن هذا الأدب فقير فقير . ولكنه يمثل المقاومة التي كانت تعانيها الثقافة العربية الاسلامية لتستمر في العطاء والوجود وبصورة خاصة في الحفاظ على مابقي من الدين وهو « الهوية » الوحيدة .

* * *

يبقى في النهاية أمر أخير يتصل بأثر هذه الملحمة العربية الاندلسية التي نشأت على الطرف الغربي الأقصى من أوروبا . وكان في ذلك الوقت أقصى الأرض المعروفة !

كانت الاندلس أحد معابر أربعة تسربت منها الثقافة العربية الاسلامية إلى أوروبا . واحد في أقصى المشرق عبر جبال القفقاس فتحه وعبره مروان ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين. ولم يلبث أن أغلقه بعد سنوات معدودة ثاني الخلفاء العباسيين المنصور ، وجعله موقعاً دفاعياً . والثاني عبر القسطنطينية وقد استعصى طويلاً حوالي ثمانية قرون حتى فتحه محمد

الفاتح العثماني . والثالث عبر صقلية وقد افتتح لمدة قرنين ثم أغلقه النورمان في القرن الخامس /١١م وإن لم يغلقوا الباب أمام حضارته . والرابع كان الاندلس وكان أطول الجميع عمراً وأثراً مع أنه الأقصى بعداً . ولابد أن نضيف إلى ذلك مياه البحر المتوسط التي كانت نصفها في الشرق والجنوب والغرب ولمدة عدة قرون مسرحاً للشراع العربي . قبل أن تتغلب عليها الاساطيل الأوروبية منذ القرن الخامس / ١١ م قبيل الحروب الصليبية فتستخدمها للهجوم على البلاد العربية الاسلامية في الغرب وفي الشرق .

ويختلط أثر الاندلس في أوروبا مع أثر الحضارة العربية الاسلامية عامة فيها . لأن الأندلس هي البنت الكبرى لهذه الحضارة . وقد شكلت المركز المتقدم لها على الأرض الأوروبية ذاتها . وإذا أضحى من البديهيات الشائعة بيان الأثر الحضاري العام للعرب في أوروبا فقد يكون من الصعب فصل تأثير الأندلس وحدها فالوشائج أكثر تعقيداً واتصالاً من أن تنفصل .

وعلى الرغم من التباعد في اللغة والموازين والقوافي فاننا نجد أمامنا التأثير اللغوي والشعري . ففي اللغة الاسبانية اليوم قرابة خمسة آلاف كلمة من أصل عربي يتصل بعضها بالزراعة وبالكيمياء والطب والصيدلة والموسيقى والفلك وبعض الحرف والأدوات وبعض أسماء المواقع . وقد تسرب أعداد من هذه الكلمات إلى اللغات الأوروبية الأخرى كما تسربت الأرقام العربية إليها . واستقرت فيها . أما الشعر الاسباني فقد نشأ أول مرة تقليداً لشعر العرب . صوره وقوالبه وقوافيه انتقلت حتى إلى شعراء الجنوب الفرنسي (بروفانس) عن طريق الصلات التجارية

وتجول الشعراء المنشدين المعروفين بالتروبادور . والشعر الرومانسي ينتسب إلى العرب أكثر مما ينتسب إلى اليونان واللاتين . وقواعد التقفية التي اتبعها الشعر الشعبي الاسباني والبروفانسي وأساليب الصياغة عربية وفي طليعة ذلك الزجل ومقطعات الأغاني. وأوائل شعراء التروبادور استخدموا القوالب الزجلية الاندلسية ذات الاغصــان والخرجات (الروندو) وسرى ذلك من بعد إلى انكلترا والمانيا والبرتغال وايطاليا وأزجالها . يظهر ذلك في أغاني الفونسو العاشر وأسقف هيتا خوان رويس في أنشودة العربيات الثلاث وغيرها .

ثم أدب قصصي شعري شعبي ازدهر في الأندلس العربية وإن لم يسجل ويعترف به . ولكن آثاره بقيت في الشعر القصصي في اسبانيا وفرنسا . وكان موضوعه العام متصلاً بالسخط على الاقطاعيين وبالطابع الفروسي وقصص الحب . أو برواية قصص الأنبياء ! وينبغي أن نلاحظ هنا أن هذه التأثيرات كلها كانت ناجمة عن الاتصالات الحياتية التي تجري في قاع المجتمع بين عناصره المختلفة ،ومن خلال اللغة المشتركة التي يتكلمها،والخليطة من العربية والرومانسية.فأما الطبقة الرسمية المثقفة فكانت لها اللغة الرسمية الفصيحة والشعر الموزون المقفى اللذان كانا لغة السادة وشعرها الرسمي .

ومثل ذلك يقال في القصص فقد كانت بدورها إنتاجاً شعبياً لم يدخل ميدان الأدب الرسمي . ومن القصص الأولى المتأثرة بالأصول العربية كتاب : سلك الكتاب وفيه ٣٣ اقصوصة تدل الدلائل على أنها كتبت أولاً بالعربية ثم ترجمت إلى اللاتينية قبل تقديمها إلى ملك أراغون في مطالع القرن السادس / ١٢ م . وقد ذاع الكتاب وترجم إلى عدة لغات . وذاعت كذلك قصص كليلة ودمنة التي ترجمت مبكرة إلى

أكثر من أربعين لغة . وقصص السندباد ورحلاته على الموج وبعض القصص من الاسرائيليات . هذا إلى أن الباحثين يقرون بديون الكتاب والأدباء الأوائل من الاسبان للأدب العربي الأندلسي كالدون خوان مانويل ، وتورميدا . هذا بالاضافة إلى أثر ألف ليلة وليلة التي عرفها الغرب عن طريق الأندلس في الغالب والتي كان لها أثرها الواضح في تكوين الفكر القصصي الاوروبي وإلى قصص الفروسية ، وقصص المعراج . وأخبار الآخرة التي اقتبسها دانتي وصاغ منها جحيمه .

ونتتقل من الأدب إلى العلوم الانسانية لنجد أن حركة المقاومة والاستردادالاسبانية رافقها حركة ترجمة ونقل كبرى عن الفكر العربي الاندلسي .وتأثير هذا الفكر كان قد بدأ منذ الفتح في الواقع فحولية البلدة وهي التي وجدت في دير البلدة على حوض نهر ابرو شمال اسبانيا نكشف أنه منذ ماقبل عصرها في القرن الثالث / ٩ م . كان هذا التأثير موجوداً وقد تعزز في ماسمي بالحولية المتنبئة التي كتبت أيضاً أواخر القرن الثالث / ٩ وفيها تاريخ الاندلس الذي اطلع عليه صاحبها في قرطبة وطليطلة والتنبوء بسقوط الحكم العربي سنة ٨٨٣ م . وثم أيضاً الحولية القوطية وهناك اجماع على أن مصادرها عربية .

كل هذا تم عن طريق التعايش والترجمة الشعبية العامة . أما حركة الترجمة الواضحة ، وللعلوم بصورة خاصة ، فقد استهلت منذ القرن الرابع / ١٠ م بمبادرات خارج اسبانيا أبرزها أعمال قسطنطين الافريقي المتوفى سنة ٤٨٠ / ١٠٨٧ والذي ترجم تحت ظل البابوية كتب الطب خاصة لأنه خريج مدرسة سالرنو في صقلية أول مدرسة طبية فيأوروبا. غير أن سقوط طيلطلة سنة ٤٧٨ / ١٠٨٥ بيد قشتالة وهي العاصمة القوطية السابقة التي تشبعت بالحضارة العربية خلال أربعة قرون والتي كانمجتمعهاخليطاً واللغة فيها مزدوجة عربية_رومانسيةفقد فتحالأبوابعلى

مصاريعها لدخول الفكر العربي والاندلسي بخاصة إلى الفكر الأوروبي عن طريق الترجمة ، في المراحل الأولى ، إلى اللاتينية ، لغة العلم والتفاهم المشترك في اوروبا .

كانت المبادرات القوية الأولى في هذه المدينة بالذات وكانت الترجمة برعاية من رئيس الأساقفة ريموندو الذي كان كبير مستشاري ملوك قشتالة (فيمابين سنتي ١١٢٦-١١٥١ م / ٥٢٠ - ٥٤٦) فقد لجأ إلى طليطلة في هذه الفترة بعض اليهود الهاربين من الحكم المرابطي وتزمته . فاستخدمهم هذا الأسقف في ترجمة بعض النصوص العربية إلى اللاتينية. وبعضها من أصول اغريقية وبعض إسلامي وفيها بعض الكتب . وكان ذلك حدثاً تاريخياً بالنسبة لأوروبا التي كان التعليم فيها قاصراً على الأناشيد الكنسية حتى ذلك الحين .

وقد اتجهت الترجمة بالطبع إلى الأمور العملية كالطب والأفكار الجدلية كالفلسفة ولم نتجه إلى الأداب والشعر لقلة اهتمام المشرفين على الترجمة بهذه الأمور . هذه الجماعة التي تولاها ريموندو عرفت في التاريخ باسم مدرسة المترجمين الطليطليين الذين ترجموا ما بين أواسط القرن ١٢ والقرن ١٣ الكثير من كتب الطب والحساب والفلك والرياضيات والكيمياء والتاريخ الطبيعي بالإضافة إلى كتب الفلسفة وما وراء الطبيعة والمنطق والسياسة ومنها كتب أرسطو وأفلاطون . وشروح المسلمين عليها ومؤلفات اقليدس وبطليموس وجالينوس وأبقراط عدا كتب الخوارزمي والبتاني والفرغاني وابن سينا وابن رشد والبطروجي والغزالي والزهراوي ومن إليهم . ومن البارزين في إطار هذه المدرسة أسقف شقوية ومن البارزين في الاشراف عليها الملك ألفونسو السابع وأسقف طليطلة خيمنس دي راد (١١٧٠ - ١٢٤٧ م) . وكان يتقن لغات كثيرة منها العربية وقد كتب حولية الطليطلي .

بهذا الشكل ظلت طليطلة إلى مابعد سقوطها بقرون تحمل الطابع العربي وكانت مدرستها للترجمة أهم مركز للدراسات العربية . وقد لحقتها في القرن الثالث عشر مدرسة بالرمو في صقلية . وفي طليطلة ذاتها أيضاً أسست جمعية الوعاظ أول مدرسة للدروس الشرقية في أوروبا سنة ١٢٥٠ بقصد تدريب المبشرين قبل إرسالهم لتبشير المسلمين واليهود . وفيها قبل ذلك ترجم القرآن الكريم في أول ترجمة لاتينية لهسنة ١١٤٣. وإليها كانقصد العلماء من انحاء أوروبا للدراسة.ولم يكن هدف جميع المترجمين والدارسين معرفة العلم ولكن بعضهم إنما كان يدرس التماساً لحجج يقارع بها الاسلام وأهله . وجميع رجال الدينكانوا كذلك وهم جمهرة العلماء والطلاب يومذاك .

ولعل من أهم ماقامت به مدرسة طليطلة بجانب الترجمة هو استخدام اللغة القشتالية (الاسبانية) بدل اللاتينية في تدوين المصنفات ، وذلك في عهد الملك الفونسو العاشر الملقب بالعالم El Sabio والذي دفع بالمدرسة إلى الأمام بالرعاية والمال وشارك بنفسه في أعمالها العلمية . ولم يقنع بذلك ولكنه أنشأ مركزاً مماثلاً ومنافساً للعمل الثقافي في مدينة مرسية شرقي اسبانيا. عكف فيه على التدريس بعض علماء المسلمين والنصارى واليهود وعلى رأسهم الرقوطي الفيلسوف المسلم . ولم يوفق هذا المركز كثيراً فنقله إلى اشبيلية . وكان من دوافع الملك في خطته العلمية أن أعداداً من المدن العربية الاسلامية سقطت في تلك الفترة في يد قشتالة . وصار نصف رعاياها تقريباً من المسلمين المثقفين،وصارت المكتبات العربية بما تحويه من كنوز الثقافة تحت أيدي الحكم الجديد . وتوسعت بذلك أعمال الترجمة لتشمل الآداب والتاريخ. وفي عهد الفونسو العالم هذا (أو الحكيم) وضع (التاريخ العام الأول لاسبانيا). وكتب علم الفلك

وصنعت بأيدي العرب بالطبع الآلات والأجهزة اللازمة له . وكان الملك يصحح النصوص بنفسه . وقد جمع كتاب التاريخ العام عدداً من النصوص التاريخية العربية مع بعض الملاحم الشعرية الشعبية المتصلة بتاريخ اسبانيا الاسلامي ومنها ملحمة (السيد) .

هكذا عند انتهاء القرن الثالث عشر كانت اسبانيا وأوروبا معها قد اتصلا بالعلم والفلسفة العربيين « وأنجزت اسبانيا مهمتها كوسيط في هذا الميدان.وامتدت الطريق الفكرية من أبواب طليطلة شمالاً فقطعت جبال البيرنه ثم سارت متفرجة حتى جازت بروفانس وثنايا الألب ونفذت منهما إلى اللورين فألمانيا فأوروبا الوسطى وعبرت بحر المانش واتصلت بانكلترا » . ووجدت بهذا الشكل مراكز ثقافية جديدة في جنوب فرنسا تعتمد على الثقافة العربية أهمها مرسيليا وتولوز ومونبيليه. كما وجد في شرقي فرنسا ديركلوني الذي لعب أهم الأدوار في إثارة الحروب الصليبية بجانب دوره في نهضة القرن الثاني عشر وإصلاح الكنيسة . وأضحت منطقة اللورين بذلك أخصبب تربة لنمو العلوم العربية في الغرب .

ومع كل هذا فقد كانت وفود الدارسين الأوروبيين لا تنقطع عن المدن العربية الاندلسية،ومن تلاميذها كان عدد من البابوات والأساقفة ورجال العلم والإدارة في أوروبا . غير أنه ما من شك في ان اكبر الأثر للفكر الاندلسي فيها بعد الطب هو الفلسفة . ومن نجومها المعروفين ابن باجة وابن طفيل صاحب حي بن يقظان. أما نجمها الأكبر فهو ابن رشد (المتوفى سنة ٥٩٥ / ١١٩٨ (والذي كان موسوعة في الفقه والطب والفلسفة . وقد تركت الرشدية آثارها في الفكر الأوروبي لقرون عديدة تمتد حتى القرن السابع عشر . فقد أخذ عنها المقارنة والتوفيق بين الايمان

والعقل ، بين الدين والعلم. وكانت هذه المعضلة في التوفيق مابين أرسطو والكتاب المقدس من أشد ما واجه رجال الدين في أوروبا تعقيداً. وكان تأثير الرشدية ومدرستها حاسماً رغم معارضة المدرسة الدومينيكانية له ولآرائه . بعد أن تبنتها الجامعات والجماعة الفرنسيسكانية . وبلغ من شهرة ابن رشد في الغرب أن أعطي لقب المعلم الثاني .

ويتصل بالأفق الفلسفي أفق التصوف وفي هذا المجال لا يجارى ابن عربي ومدرسته الاشراقية في أثرهما لافي الفرس والترك فحسب ولكن في مدرسة الفلسفة النصرانية في العصور الوسطى أي الأوغوسطينية . وبالذات في عدد من رجالها أمثال سكوت وبيكون ولل . وقد يجاري ابن عربي متصوف أندلسي آخر هو ابن سبعين ولكنه أقل شهرة منه، ويعرف لدى المتصوفين بقطب الدين . ويتصل بالأفق نفسه، أفق الفلسفة، أثر الموسيقى النظرية . وقد كان ازدهار الموسيقى والغناء في الاندلس سبباً في تسرب هذين الفنين إلى الغرب . وإذا كان الغناء محدود الأثر إلا لدى الشعراء المغنين (التروبادور) وفي الزجل الشعبي ، وكان المنتشر من هذا الغناء في الجنوب الغربي من أوروبا كلها في القرن الثالث عشر مشتقاً من منابع أندلسية ظل أثرها قروناً بعد سقوط غرناطة ، فان أبحاث الموسيقى النظرية العلمية والتطبيقية كان لها أيضاً سوقها في الغرب لدى الجماعات الدينية والمثقفة . وهناك رسالة فلسفية في الموسيقى لابن باجة الفيلسوف (المتوفي سنة ٥٣٣ / ١١٣٨) والذي برز في اشبيلية وفاس كانت تعدل عند الغربيين من حيث القيمة الفكرية رسالة الفارابي الشرقية في الموسيقى . وقد انتقلت مع الفلسفة آثار عديدة حول النظريات الموسيقية منها بحث ابن سبعين الفيلسوف (المتوفى سنة ٦٦٧ / ١٢٦٩) في كتاب الأدوار حول تناسب الأنغام . كما أن رسالة الخوارزمي

في الرياضيات فيها قسم عن الموسيقى وقد ترجمت . وكانت من اقدم الرسائل التي أدخلت الموسيقى العربية إلى العالم اللاتيني . عدا مادخل بعدها من أبحاث ابن سينا والفارابي والكندي في هذا المجال . وقد ترجمت بخاصة في طليطلة .وأخذ الأوروبيون جانباً من الموسيقى القياسية هو الايقاع عن الفيلسوف الكندي .

بعد هذا المجد الفلسفي الفكري للأندلس في أوروبا يبقى من الأمور الهامة أن نشير إلى التأثيرات الأخرى التي بقيت في الحياة العملية للناس فقد بنى العرب المسلمون في الأندلس أو أعادوا بناء ٤٤ مدينة وحصناً ضخماً معظمها باق.وهو رقم يعدل ماأقاموه في الشام أو في فارس وايران — وإن بنوا ضعفه في المغرب — هذا الانجاز الحضاري الضخم من المؤسف ألا يشير إليه الباحثون وإلى معناه الكبير في التطور المدني . ونكتفي به فلا نذكر التأثيرات الأخرى التي بقيت في الحياة العملية للناس كالورق والبوصلة والأدوات المعدنية والاسطرلاب والاسلحة وآثارها في العلم والعمل،وورق اللعب والشطرنج وما إليها،والآلات الموسيقية كالقيثارة والعود والبوق والطبل والرباب،ثم النواعير وأصناف الفواكه وغيرها . هذا إلى بناء الحمامات في البيوت وأنواع اللباس ، والعناية بالنوافير والبرك وألوان الطعام وتحجب المرأة بالاضافة إلى التمازج العرقي الذي أوجد طبقة المولدين . . وإلى استخدام اللغتين العربية والاسبانية معاً مختلطتين في البيت والسوق . . . إن تأثيرات التعايش لا تقف عند حد . وقد كان التسامح الاسلامي يفتح لها جميع الأبواب .

* * *

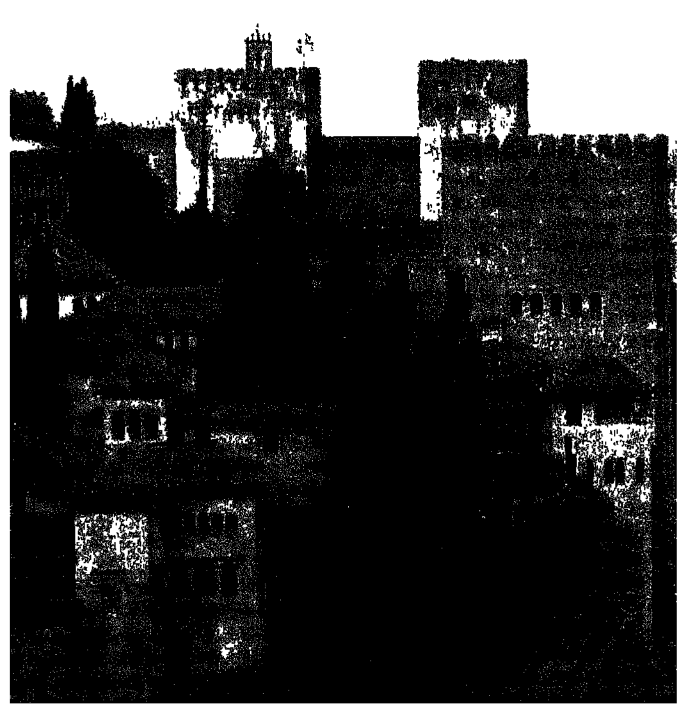
. . . وكانت الأندلس حلماً حلمت به الأرض الاسبانية فترة طويلة . ثم غاب الحلم ولكن بمأساة مفجعة . ما كان أحلى ذلك الحلم لولا هذه المأســاة .

الفهرس

* * *









الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٠

سعر النسخة داخل القطر
٦٥ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل
١٢٥ ل.س